القسم الثالث

أنصت إلى مولانا

أنصت
إلى المثنوي ومولانا فأنصت
وإلى الناي فأنصتْ
إنه عن نفسك يحدث

أنصت إلى الناي
إلى المثنوي ومولانا فأنصتْ
هذا الصوت ليس كباقي الأصوات
لتعلم من أين جئت وإلى أين تسير
وتدرك معنى كونك إنسانا...

أنصت إلى الناي
و أنصتْ إلى مولانا و المثنوي
أنصت، فإن تلك الأصوات التي تنبعث من الأعماق

تهمِس لك كروح القدُس وتقول:
أنتَ مثل مريم، أرجوك أنصت
علك تنجب عيسى بتلك الروح.

رحلة قصيرة في عالم فكر الرومي

أيها القارئ العزيز!

للإنسان أسئلة أساسية تتعلق بذاته لا ترتبط بالعصر الذي يعيش فيه، لأنها أسئلة خالدة. من أنا؟... من أين أتيت وإلى أين أنا راحل؟... من الذي ارسلني إلى هذا العالم؟ وماذا يطلب مني؟

فهذه هي الأسئلة التي انهمك مولانا الرومي في الوصول إلى الإجابة عنها بمؤلفاته ضمن بانوراما إنسانية واسعة وشاملة. وهو في صدد الإجابة على هذه الأسئلة يدعونا إلى رحلة طويلة، إلى عالمنا الدخلي تارة وإلى عالمنا الخارجي تارة أخرى.

إذن، فلننصت إلى هذا الصوت ولنصغ إليه ولنتعقب آثار هذه الرحلة وسبلها ومفازاتها، ولنزُرْ حدائق المثنوي مرة، ولنشف غليلنا من نبع "فيه ما فيه" مرة أخرى، ولنصغ إلى الديوان الكبير أو إلى المجالس السبعة، ولنسأله مرة ليجيب علينا، ولنقم نحن مرة أخرى -إن أذن لنا- بالكلام عنه. وليكن اقتباسنا الأول عنه النكتةَ الصغيرة الآتية التي قد تكون جوابا لأسئلتنا:

هناك شيء واحد فقط يجب ألا تنساه

هناك شيء واحد على وجه الأرض يجب ألا ينسى. فإن تذكرت هذا الشيء ونسيت كل شيء سواه فلا تحزن. ولكن إن تذكرت كل شيء ونسيت ذاك، فلن تحصل على شيء. وهذا يشبه ما يأتي:

إن أرسلك أحد السلاطين في مهمة إلى بلد معين، وذهبت أنت إلى ذلك

البلد، ولكن بدلا من القيام بإتمام المهمة انشغلت بأمور أخرى كثيرة وأنجزتها، فهل تعتقد أنك فعلت أشياء كثيرة!؟ وهكذا، إنك أيها الإنسان أُرسلتَ إلى هذه الدنيا لمهمة معينة، فإن قلتَ: "إنني لا أستطيع أداء هذه المهمة، ولكني أقوم بإنجاز أعمال أخرى"، فيقال لك "هيهات!"، ما خُلقتَ أنت لشيء آخر".

من أنا

والآن لنفصّل قليلا ما اقتبسناه أعلاه، ولنبحث عن أجوبة للأسئلة التي طرحناها في البداية. فأجوبة بعض الأسئلة واضحة، فالسلطان في المثال السابق هو الله ﷻ، والشخص المأمور بأداء تلك المهمة هو الإنسان، والمكان الذي أرسل إليه هو هذه الدنيا. ولكن ما هي تلك المهمة؟ لم تُجب النكتةُ على هذا السؤال جوابا صريحا، فهذا الجواب موجود في جميع كتب الرومي ولا سيما في المثنوي. وما نريده في هذا الكتاب هو البحث عن جواب هذا السؤال وإيضاحه. ونستطيع أن نقول كجواب أوّلي وسريع بأننا أرسلنا إلى هذا العالم كمرشحين للوصول إلى مستوى الإنسانية؛ فمهمتنا أن نخرج من الدنيا ونحن قد وصلنا إلى مستوى "الإنسانية" بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فهذه هي المهمة الرئيسية التي ينتظرها منا السلطان الذي أرسلنا إلى هذه الدنيا. وعندما سئل بهاء ولد (والد الرومي) عند قدومه بغداد: "من أين أتيت؟ وإلى أين تسير؟" قال: "جئنا من عند الله، وسنسير إليه". فهذه هي الرحلة الحقيقية الفريدة. وجميع الرحلات الأخرى ثانوية تلتقي في هذه الرحلة الفريدة العظمية.

في هذه الرحلة يدس الرومي في أيدينا خارطة الطريق لنستعملها ونسترشد بها. وهو يشرح في هذه الخريطة، الطرق التي توصلنا إلى الإنسانية الحقة، ويبين المخاطر، ويعرّفنا بالمرشدين الذين يستطيعون إنقاذنا من هذه المخاطر. ولكنه يقوم أيضا بالإمساك بمرآة أمامنا لكي نرى أنفسنا على حقيقتها. إذن، فلنبدأ أولا بالتعرف على أنفسنا ونسأل المثنوي:

- من أنا؟

- أنتَ أيها الإنسان! حيوان وملاك في الوقت نفسه...

"لقد اتحد حيوان جسمك مع ملاك روحك

لذلك فأنت منتسب إلى السماء وإلى الأرض في آن واحد".

"خلق الله تعالى الملائكة ومنحها العقل، وخلق الحيوانات ومنحهاا الغريزة والشهوة، ثم خلق الإنسان وأعطى له كلا من العقل والشهوة؛ فإن غلب عقلك على شهوتك فأنت أسمى من الملائكة، وإن غلبت شهوتك على عقلك فأنت أحط من الحيوان".

- إذن، فأنا أملك بنية ثنائية من الجسد والروح. ولكن ما قيمة كل منهما بالنسبة للآخر؟ بأيهما أستحق أن أُدعَى إنسانا؟

- قيمة الجسد بالنسبة للروح كقيمة الكيس بالنسبة للذهب:

فكما أن قيمة الكيس من قيمة الذهب الذي فيه

فإن لم يكن فيه ذهب فهو أبتر.

فكذلك قيمة الجسد من قيمة الروح الذي فيه.

أما قيمة الروح فمن قيمة نور الحبيب ﷺ المنعكس عليها.

واعلم جيدا أنك إنما أنت -مثلما قال ديكارت بعد عصور- إنسان بعقلك وفكرك فقط:

"أيها الأخ! إن عقلك وفكرك هما الجانبان اللذان يجعلانك إنسانا، إذ ما قيمة جلدك وشراينك وعظامك!"

"فهيهات هيهات ما بين صورة الإنسان ومعناه؛ ألم تر أن الميت لا يُترك في بيته ولا لحظة، بل يدفن مباشرة".

"أو بتشبيه آخر، إن أمرك يشبه الصدف واللؤلؤ، أو الجرة والماء..

فليس في كل صدفة لؤلؤة.

إذن، عليك أن تعتني باللؤلؤ لا بالصدف، ولا تنخدع بالشكل. فإلى متى ستبقى تلهو بزخارف الجرة. دع الزخرفة وابحث عن الماء".

- إن الإنسان من طين كمثل آدم عليه السلام أي، من الماء والتراب أليس كذلك؟

- أجل، الإنسان من الماء والتراب. ولكن الإنسان الناضج يشبه الماء الزلال المترشح من التراب.. والماء البراق يُظهر ما في قاعه من حصى أو حجارة كما هي. ولكن إن اختلط بالتراب، عكِر وفَقَدَ صفة النقاء. وإن الأنبياء والأولياء يُشْبِهون هذا الماء الصافي العميق. وعندما يشاهد الماء العكر القليل ذلك الماء يدرك الأمر ويقول: "إذن إن تعكّري شيء عرضي يمكن ازالته، وقد كنت أنا أيضا صافيا مثله في زمن ما". ثم يرغب بالالتحاق بالماء الزلال. والذي يلتحق بالبحر وينصب فيه سيتطهر هو أيضا ويتنقى. ولكن الماء الذي يرى نفسه مختلفا وينأى ثم يرفض الانصباب في البحر،سيبقى عكِرا. وما دام الماء هو الأصل، فإذن هناك شيء آخر يمنع الماء القليل من الانضمام إلى الماء الكبير، أي هناك رفيق سيئ، ألا وهو التراب.

- التربة والماء.. الصدف واللؤلؤ.. أعني باختصار، لقد اجتمع الغث والسمين فيّ!

- نعم لقد اجتمعا فيك، لذا فأنت العالم الصغير وأنت العالم الكبير في الوقت نفسه.

- الخلاصة: أنت أصغر شيء في العالم من ناحية جسدك، ولكنك أكبر عالم من ناحية المعنى الذي تحمله.

فالناس كلهم متشابهون من ناحية المنظر الخارجي. ولكن بما أن قيمهم الداخلية مختلفة كل هذا الاختلاف، فالمنظر الإنساني الخارجي لا يكفي لكي يكون الإنسان إنسانا.

طبعا لا يكفي. تدبرْ وتأمل، ماذا سيحدث لو كان يكفي: "لو كان المظهر الإنساني كافيا لكان قدر سيدنا محمد ﷺ كقدر أبي جهل على السواء. وإن ذراع ورأس وبدن موسى عليه السلام يشبه ما عند فرعون، إلا أن موسى عليه السلام في السماوات العلا، وفرعون في أسفل سافلين.

- بما أن المظهر الخارجي للإنسان خادع، كيف لنا أن نعرف قيمة ما يحمله الإنسان في داخله؟

لكي نعرف ماهية أي شيء، علينا أن نعرف أصله. فلو قمت بجعل السكر على شكل رغيف، فإن طعمه سيبقى سكرا وليس خبزا. ولكي نعرف عما إذا كان ما نأكله رغيفا أم سكرا فيجب تذوقه أولا، لأن العين لا تستطيع تمييز ذلك. لذلك فلا تحسبنّ كل امرئ يشبه قالب السكر هذا، سكرا.

تشابه الأسماء خدّاع على الدوام

الكافر والمؤمن في شكل إنسان

ولكن هذا التشابه في الشكل فقط

فهذه الأبدان مثل جرات مغلقة

ليس المهم شكل الجرة، بل المهم ما في داخلها

فهناك جرة مليئة بماء الحياة

وهناك جرة مليئة بالسم الزعاف

ولكن كليهما في الشكل جرة..

فالإنسان يشبه الشجرة، فشجرة واحدة مثمرة، خير من مائة شجرة غير مثمرة.

- لقد سردنا حتى الآن، ثنائية الإنسان من ناحية الخلق والطبيعة. إن كان لابد من امتلاكي البدن والنفَس حتى أكون إنسانا، فلمَ إذن أقوم بإنكار بدني وعدِّه غير موجود؟

فليست المسألة في الإنكار أو بعدّه غير موجود، إنما المسألة هي أيهما يحكم على الآخر. فإن أردت الجواب فاستمع لهذه الأبيات جيدا:

"كما أن للحصان عينا،

فكذلك لراكبه عين أيضا..

ولكن الحصان الجيد يرى بعين صاحبه لا بعينه هو.

فعين رأسك أنت أيضا يجب أن تكون كمثل الحصان المطيع

تطيع السلطان الذي يوجه بصيرته وعقله".

ولكن هل من الضروري أن تعارض عين الحصان عين السلطان أو أن تعارض النفسُ العقلَ وتتصارع معه على الدوام؟ ألا يمكن أن بينهما وئام؟

"هذه أمنية مستحيلة. لأن بدنك هو حصانك، والدنيا هي إسطبل هذا الحصان. وعلف الحصان لا يصلح أن يكون غذاءً لصاحبه أبدا. لأن غذاء الراكب وطعامه ونومه مختلف. ولكن عندما أصبحتَ أسير بدنك أصبحت تنام وتقعد في إسطبل الحصان.

البدنُ والروح، والنفس والعقل في صراع دائم وجدال مستمر، حيث يشبه هذا الجدالُ حالة مجنون ليلى وناقته: حيث ركب مجنون ناقتَه موليا وجهه شطر ديار الحبيبة، بينما كانت الناقة ترسل نظراتها إلى الوراء حزينة على فراق صغيرها الذي تركته خلفها. فكانت الناقة كلما أحست بارتخاء اللجام، عرفت أن سنة من النوم أخذت مجنون، فراحت ترجع مسرعة نحو صغيرها. وعندما أدرك مجنون بعد مدة أنه لم يقطع طريقا، بل لا يزال في بداية الرحلة زفر بحرارة وقال:

"أيتها الناقة! كلانا عاشق، ولكن معشوقنا مختلف؛ إن طريقي إلى الوصال لا يستغرق سوى يومين على الأكثر. ولكني وقعت في فخك وأمضيت ستين سنة من عمري في هذا الطريق ولم أصل بغيتي".

- إذن، فالله ﷻ يعطينا بعض الأشياء ثم يطلب منا أن نحذَرها. فما سبب إعطائنا النفس والشهوة؟

"لقد أُعطيتا لك لامتحانك. لأن هذه الدنيا دار امتحان؛ وإن لم يكن هناك أي امتحان فكيف يتميز الخبيث من الطيب:

هل يكون جهاد بدون أعداء؟

وكيف يكون قيمة للطاعة دون شهوة تحول دون الامتثال؟

إذن، فلا تُخْصِ نفسَك كالرهبان

واسعَ جاهدا أن تكون عفيفا مع وجود الشهوة والثوران".

لقد خلق الله الملائكة من عقل خالص، وخلق الحيوان من شهوة خالصة. فنجا أحدهما بعلمه والآخر بجهله. أما الإنسان فهو مضطرب بين الاثنين. فقد جمع الله فيه بين الإنسانية والحيوانية، لكي يتضح الفرق بين الضد وضده؛ بين آدم عليه السلام وإبليس، وبين موسى عليه السلام وفرعون، وبين إبراهيم عليه السلام ونمرود، وبين الرسول ﷺ وأبي جهل.

- يتضح من كل ما تقدم أن هناك نوعين من الجمال ونوعين من القبح: جمال الجسد وجمال الروح. ونحن لا نملك حرية اختيارِ أجسادنا، ولكن بما أننا نستطيع بناء صورتنا الداخلية، فإن بوسعنا تجميل أخلاقنا. والظاهر أن هذا هو المهم.

- وهكذا تماما. يقول الرومي: "الناس ينظرون إلى زينة القدح، ولكني مفتون بالشراب الذي فيه؛ ماذا يفيد لو كان القدح من ذهب وفي داخله خلّ؟!

وصورة الإنسان وجماله الخارجي يشبه النقوش على القدح. فإن انكسر القدح غابت النقوش، أما أنت فابتغ الشيء الذي لا يغيب".

وهكذا هو الأمر عند الله ﷻ، فإن أردت أن تعرف ما المهم عنده ﷻ وما غير المهم، فاستمع إلى هذه الحكاية الرمزية.

قبيح الصورة، قبيح الروح

كان لسلطان عبدان، كان أحدهما زنجيا ولكن بخلق حسن، والآخر جميل الصورة ولكن قبيح الخُلق. فأرسل السلطان عبده الجميل لإنجاز مهمة ما، وقال للآخر:

أنا أعرف أنك عبد عاقل وماهر. ولكن صديقك هذا لم يترك مثلبة إلا وألصقها بك؛ قال: إنك سارق وعديم الحياء. ما أصل هذا الأمر؟

هكذا أراد السلطان أن يستفزه ليتكلم ضد صديقه. ولكن العبد أجابه بجواب لم يتوقعه:

"يا مولاي السلطان! كل ما قاله صديقي صحيح. بل عندي من العادات السيئة أكثر مما قاله. ولكن الظاهر أنه لطيبته أخفى أكثر عاداتي السيئة ولم يذكر سوى القليل منها".

قال السلطان: "حسنا، كما عدد مثالبك، اذكرْ لي أنت أيضا مثالبه وعيوبه".

فأجاب العبد: من عيوبه أنه مُحب ووفي وكريم، ثم هناك عيبان آخران له وهما التضحية والتواضع.

وهكذا عدّد جميع الصفات الجميلة واحدة تلو الأخرى. وبعد مدة أرسله السلطان في مهمة واستدعى إليه العبد الجميل وكرر له ما قاله للأول:

"لقد أسند إليك هذا العبد الأسود أمورا قبيحة، ولكني لا أرى فيك ما ذكره من قبائح، بل -على العكس- أراك ذكيا وذا مواهب عديدة.

وما إن سمع العبد هذا الكلام حتى فار من الغضب، وأخذ يذكر في سيل من الكلام محاسنه هو من جهة ومساوئ ذلك العبد من جهة أخرى، ولم يترك عيبا ولا مثلبة إلا وألصقها به.

هنا قام السلطان بطرده من مجلسه قائلا:

"يا نتن النفس! وإن كان وجه ذلك الرجل أسود غير أن داخله أبيض كالثلج. أما أنت فوجهك أبيض ولكن قلبك مظلم ونتن. اغرب عن وجهي، ولا تُرني وجهك مرة ثانية!"

هذه الحكاية تحمل معاني كثيرة. وما فهمتُه من كل هذا هو أن إنسانية الإنسان لم تُكتسب بسهولة.

أجل، والنكتة الآتية تؤيد هذا الأمر:

أبحث عن إنسان

كان هناك راهب يتجول نهارا في الأزقة والأسواق حاملا بيده فانوسا.

فسأله أحد الغافلين:

- لماذا تتجول هنا وهناك وأنت تحمل فانوسا في عز النهار؟

- أبحث عن إنسان.

- يا للعجب، ألا ترى كل هؤلاء الناس الذين يملأون الأسواق؟

- كلا، كلا. ليس الأمر كما زعمتَ. إنني أبحث عن إنسان حقيقي، فإن وجدته رضيت أن أكون ترابا تحت قدميه.

درجات الإنسان

ما دام الإنسان إنسانا بنسبة نضج عقله وروحه، إذن فهناك درجات في الإنسانية بعدد الناس الموجودين على سطح هذه الأرض.

- أجل.. حسب رأي الرومي هناك درجات سُلَّم إنسانية، ولكل إنسان درجة في هذا السلم. يقول الرومي: "في هذا العالم سلالم مخفية ترتفع من الأرض إلى السماء درجة درجة. وكل إنسان في سلم مختلفٍ وفي درجة مختلفة".

بما أننا لا نستطيع التوصل إلى معرفة كل إنسان، فهل نستطيع تقسيم سكان هذه السلالم إلى مجموعات إنسانية معينة؟

نعم، نستطيع تقسيمهم إلى نوعين: الإنسان الفج، والإنسان الناضج، الذين يعلمون والذين لا يعلمون، المرضى والأطباء، المسافرون والمرشدون.. ويجب ألا ننسى أن هناك ناضجِين مزيفين، وعلماء مزيفين، ومرضى في كسوة أطباء، ومقلِّدين.

ويرى جلال الدين الرومي، أن الطفولة واليفاعة لا يتعلقان بالسن، بل بدرجة النضج. فالذين يَجرون خلف أهواء طفولية يعدون أطفالا مهما بلغوا من العمر. يقول: "لا يستحق صفةَ النضج إلا سكارى الحق الذين سَمَوا على أهواء الدنيا، أما الذين غُلبوا على أمرهم بأهواء طفولية غير معقولة فيَبقَون أطفالا مهما جرى الزمن". ومن جهة أخرى فليس المرض عبارة عن مرض البدن، وليست الطبابة عبارة عن طبابة البدن. فمعظم الناس مرضى من ناحية النظر

والرأي والاعتقاد. أما الأطباء الحقيقيون فهم أطباء الروح الذين يعالجون هؤلاء المرضى ويشفونهم، إذ يقول هؤلاء الأطباء لمرضاهم: "نحن أطباء لم نأخذ علومنا من كتب الطب بل من الحق ﷻ. فالأطباء الآخرون يعالجون مرضى الأبدان، أما نحن فنعالج مرضى القلوب ومرضى الأرواح. ثم إننا لا نطلب ثمنا أو أجرة كما يطالِب بها أطباء الأبدان، لأن الله تعالى سيعطينا أجرنا مضاعفا. إذن تعالوا أيها المرضى البائسون، تعالوا.. فدواء دائكم موجود عندنا".

- إذن هناك الأطفال واليافعون والمرضى والأطباء.. أما التصنيف الآخر هو درجة المعرفة والعقل، أليس كذلك؟

أجل. ففي هذه الرحلة الطويلة والمظلمة لا ينير طريقَ الإنسان سوى نور العقل. أما العقول فتختلف بعضها عن البعض بكثير: "إن العقول تصطفّ درجات نحو السماء حسب طاقاتها وسعتها".

وعلى الرغم من هذه الفروق اللانهائية يمكن تقسيم الناس حسب نور العقل إلى ثلاث مجموعات رئيسة: العقلاء، ونصف عقلاء، والبلهاء. علامة العقلاء أنهم يُنارون بنورهم الداخلي. فهم بهذا النور ينيرون أنفسهم تارة ويقومون بإرشاد قافلة تارة أخرى. هذا العقل الذي لا محل للشك والريبة فيه هو عقل المؤمن الكامل. أما علامة النصف العقلاء فإنهم لا يملكون نورا، ولكنهم يملكون من البصيرة ما تكفيهم لاتباعهم الآخر واتخاذ عينه عينا لهم. فأمثال هؤلاء -وإن لم يستطيعوا الرؤية النفاذة- يعرفون كيفية الاستفادة من رؤية غيرهم. أما المجموعة الثالثة فهم البلهاء الذين لا يملكون ذرة عقل، ولا يستفيدون من غيرهم، لذا فهم يعيشون في ظلمة حالكة عمياء. يحاولون قطع الصحارى الواسعة وهم يتعرجون ويتجولون هنا وهناك دون جدوى. انظر، إن آلاف الجنود الذين يملأون الصحارى هم تحت إمرة قائد واحد. ولكن قد يكون هذا القائد أيضا أسير فكرة سخيفة. فإن كانت كل هذه الجنود راضية بخدمتها لهذه الفكرة السخيفة، فما بالك إذن بمدى خدمتهم وطاعتهم لفكرة قيمة وسامية عالية؟!.

- الظاهر أن هذه الفروق اللانهائية بين الناس من الناحية العقلية ومن الناحية الأخلاقية هي التي تؤدي إلى أن يكون بعضهم معلمين وبعضهم الآخر تلاميذ. ولكن إلى أي مدى تمتد وظيفة التعليم هذه؟

- طبعا، وفوق كل ذي علم عليم، وأكبر معلمي الإنسانية هم الأنبياء. لأن معلم الأنبياء هو الله ﷻ. لذا فمعرفة الأنبياء وعلمهم معرفةٌ تامة وعلم كامل. وما النجاة إلا في اتباع المنهج الذي ساروا عليه، والأسسِ التي وضعوها.

إذن هناك لكل طرف من هذين الطرفين واجب ومهمة؛ فعلى المرشد أن يكون مرشدا جيدا، وعلى المسافر أن يسلم أمره للمرشد.

هذا هو ما يجب في الحقيقة. ولكن الأمور لا تسير هكذا في جميع الأحوال. ويشرح الرومي هذا فيقول: "إذا رُبط طائران حيّان ببعضهما، لم يستطيعا الطيران مع أنهما يملكان أربع أجنحة. وإذا كان أحدهما حيا والآخر ميتا استطاع الطائر الحي حمل الميت والطيران به. فعلى الإنسان أن يعلم كيف يلغي نفسه أمام من يستطيع الطيران به. أما المغرور بعقله فكيف يستطيع شخص آخر أن يطير به؟".

المرشدون العظام طافحون بالشفقة والرحمة لمن حولهم، وهم يشبهون الرعاة الذين يصونون قطعانهم ويحافظون عليها، أما الذين لا يسلمون أمورهم إلى شفقة هؤلاء المرشدين ورحمتهم فيرمون أنفسهم إلى التهلكة أولا، ثم يُتعبون ويرهقون هؤلاء المرشدين الذين الذين يركضون وراءهم لإرشادهم إلى الصواب.

النبي موسى عليه السلام وخروفه الضال

هرب خروف من قطيع موسى عليه السلام، فبدأ موسى عليه السلام بالبحث عنه حتى المساء خوفا من أن يأكله الذئب. وأخيرا استطاع العثور عليه والإمساك به، فراح يمسح عليه بحنان ويقول له: "انظر إلى ثوبي ونعلي الممزقين، لقد أتعبتني جدا، ألا تشفق علي؟ لنقل أنك لا تشفق عليّ، ولكن ألا تشفق على نفسك أيضا وتلقي بها إلى التهلكة؟" أمام هذا المنظر قال الله ﷻ لملائكته: "لقد أصبح

موسى مهيأ للنبوة". لذا يقول رسولنا ﷺ: "ما بعث الله نبيًا قطُّ حتى يسترعيه الغنم يعلّمه بذلك رعْية الناس". (بحار الأنوار) وقد اعتُبر كل رجل إدارة بمثابة راعٍ يرعى حقوق رعيته ويصونها.

- قبل قليل شبهتم المرشدين بالقناديل التي تضيء درب المسافرين الآخرين. إذن، أليس من وظيفة هؤلاء المسافرين أن يرفعوا هذه القناديل فوق رؤوسهم؟

- بلى، ولكن بشرط أن يعلموا أنَّ رفعهم هذه القناديل فوق رؤوسهم هو لمصلحتهم أنفسهم. لذا نرى أن مولانا جلال الدين عندما رأى الجاهل يجلس في مكان أعلى من أحد العلماء الموجودين في ذلك المجلس قال:

"إن كانت الشمعة ترغب في أن تكون في مكان مرتفع فليس ذلك لنفسها، بل لكي تنير للناس بشكل أفضل. وإلا فهي شمعة سواء أكانت في الأسفل أم في الأعلى. والشمس شمس أينما كانت، ولو لم يرها الناس لبقوا في الظلام. ولو وضعت الذهب في الأسفل والفضة على السطح فأيهما أكثر قيمة؟! الذهب طبعا. والشيء نفسه صحيح بالنسبة للطحين الذي هو تحت المنخل والنخالة فوق المنخل. ولكن تبقى القيمة في الطحين. لذا فإن الرسول ﷺ عندما فتح البلدان كانت غايته هبة الجنة والحياة الأبدية للآخرين وليس من أجل إعلاء قدره. وكما يقال: "وُجدت هذه اليد للعطاء وليس للأخذ". كذلك فقد كانت أيدي هؤلاء المرشدين موجودة للبذل والعطاء وليس لأخذ أي شيء. ثم إن الإنسان الذي أصبح في موضع مدح الله تعالى لا يحتاج إلى مديح الناس. انظر كيف يجعل الله الناس وسيلة لإعلاء شأن أوليائه.

- كنا قد تحدثنا في بداية هذا الموضوع عن المقلدين وعن أصحاب الادعاءات الفارغة. وقد شئنا أن نختم الموضوع بهم:

يقول مولانا جلال الدين الرومي حول من عميت أبصارهم من أصحاب الادعاءات الفارغة: "يقول بعضهم: نحن أبصرنا وعلمنا. فإن كنتَ عاجزا عن رؤية بعير على السطح، فكيف تتوقع من الناس أن يصدقوك عندما تقول بأنك تدخل الخيط من سم الخياط؟ أنا أضحك من شخصين: من الزنجي الذي يصبغ

أصبعه بالأسود ومن الأعمى الذي يطل برأسه من النافذة لمشاهدة الخارج. فكذلك لا يستطيع من عميت بصيرته أن يرى شيئا من نافذة رأسه. ولا قيمة عند العاقل لقول الأعمى بأنه أبصر".

دار الدنيا

عرفنا -وإن كان بشكل جزئي- نوعين من الناس في هذا السُلَّم الممتد إلى السماء: الإنسان الناضج والإنسان الفج. والآن نريد أن نعرف موقفهما من الدنيا التي أُرسِلوا إليها.

فالإنسان الفج ينسى أنه شخص مسافر في دار الدنيا التي أرسل إليها، فيحسب أنه خالد فيها. لذا يَدَع نفسه للأهواء واللعب مثل طفل ساذج، ولا يخطر على باله أي شيء عن السلطان الذي أرسله إلى هذه الدار، ولا عن الدار الأصلية التي خلق لها.. والبيت الآتي يشرح كيف أن الإنسان يشتاق إلى داره الأصلية عندما يبتعد عنها ويتحرق للعودة إليها:

من ابتعد عن أصله ونأى

احترق شوقا على ذاته ودنا

هذا الشوق لا يَظهر إلا عند من يتذكر موطنه الأصلي. ويتغير التذكار حسب نضج الروح. إذ يشبه مولانا الرومي هذا الأمر بالعبيد المجلوبين من ديار الكفر والمباعين في دار الإسلام. هؤلاء إما أطفال أو صبيان بعمر ١٠-١٥ سنة. أما الأطفال من هؤلاء العبيد الذين ينشأون في عائلة مسلمة ويتربون فيها ويكبُرون، فهم ينسون مواطنهم الأصلية تماما، ولا يَعلق في ذاكرتهم أيّ شيء عنها، أما الصبيان فيتذكرون الشيء القليل، وأما المجلوبون الكبار فلا يمكن أن ينسوا مواطنهم الأصلية أبدا. لذا ففي الحضور الإلهي عندما سُئلت الأرواح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالت الأرواح: ﴿بَلَى﴾. فبعض هذه الأرواح جاءت إلى الدنيا أطفالا صغارا، لذا نسيت تماما الوعدَ الذي قطعته على أنفسها ونسيت ذلك العالم تماما، وهؤلاء هم الكفار. وأصحاب الأرواح التي تتذكر شيئا قليلا

هم المؤمنون. وأما الذين أصغوا إلى هذا الكلام الإلهي ورُفع عنهم الحجاب فسمعوا السؤال مرة ثانية فهم الأولياء.

فهذه الحال تشبه الجموع الغفيرة التي تستمع إلى حكاية عن حادثة ما؛ فالشخص الذي كان موجودا في تلك الحادثة يفهم كل شيء، ويفهم حتى كل تلميح فيحمر وجهه وتزداد ضربات قلبه. أما الآخرون فيفهمون فقط ما يُحكى لهم ولا يعرفون ما وراءه. وخلاصة الكلام: أن معظم الناس ينسون موطنهم الأصلي ولا يتذكرونه، بل ويغضبون على من يقوم بتذكيرهم. وهناك آخرون يفهمون بقدر ما يبلغ لهم ولا يدركون أكثر من ذلك. والخلاصة أن معظم الناس علاوةً على نسيانهم موطنهم الأصلي يغضبون على من يذكرهم به بل ويعادونه. ولعل الأمر بين الذين تعلقت قلوبهم بزبد الدنيا وتبنها وبين أصحاب الأرواح الكبيرة الذين تتوجه عيونهم على الدوام إلى ما وراء هذا العالم، يشبه وضع الغزال الذي وقع لسوء حظه في إسطبل الحمير.

غزال وقع في إسطبل الحمير

اصطاد أحد الصيادين غزالا جميلا، وذهب به إلى الإسطبل وأغلق الباب عليه. كان الإسطبل مملوءً بالحمير والثيران. فدار رأس الغزال وداخ من الروائح الكريهة وكاد أن يغمى عليه. وركض ذات اليمين وذات الشمال لينجو بنفسه، ولكن جميع الأبواب كانت موصدة، فلم يجد له سبيلا للخروج. وفي المساء جاء صاحب الإسطبل ورمى تبنا أمام الحيوانات. كان التبن بالنسبة للثيران والحمير من ألذ الأطعمة، ولكن الغزال المسكين لم يكن يستطيع أكله. بقى أياما عديدة جائعا، وأصبح يتلوى من الألم مثل سمكة رميت من البحر إلى الشاطئ. كانت الحيوانات تحسب أن الغزال لا يأكل التبن بسبب غروره، فبدؤوا بالتندر على حاله: "آه! آه! ما الذي رماك إلى هنا وأنت المتعود على العيش في القصور كالملوك". قال الغزال المسكين للحمار الذي بجانبه والذي كان يلومه:

"لا تزعمْ أنني لا آكل التبن بسبب غروري، إنه طعام مناسب لك ولكنه

غير مناسب لي. لقد نشأت وكبرت وأنا آكل الأعشاب النضرة الخضراء في الحقول وأشرب المياه العذبة. ليس التبن فحسب، بل كنت لا آكل حتى السنابل والرياحين والزنابق النضرة إلا نادرا. صحيح أنني بعدت الآن عن موطني وتغربت، إلا أنني لا أزال غزالا. أصبحت فقيرا ولكن عيني ليست فقيرة، فملابسي قديمة ولكني جديد".

لم يصدق الحمار هذا الكلام فقال: "الغربة تؤثر على الغريب وتجعله يهذي بمثل هذه السخافات، فيجب أن يكون لديك دليل على ما تقول".

أجاب الغزال: "انظر إلى هذا العنبر الموجود في صرتي فهو شاهد على صدقي. هل تظن أنه نما عندي من أكل التبن؟"

أجل، فلا أعتقد أن الحمير أصغوا إلى الغزال وصدقوه. وكذلك الأمر عند البشر؛ فمعظمهم لا يصدق أيضا من يخبرهم بخبر الآخرة والعالم الآخر ولا يستمع إليهم؛

أما السبب في عدم الصدق، فهو أن كل إنسان يرى ويسمع ويفهم بقدر ملكة وقابلية إدراكه، فإن كان هذا الإدراك لا يتجاوز مدارك البدوي الذي سيأتي ذكره، فأي كلام يمكن أن يؤثر في الإنسان؟

لقد سلك أحد القاصدين لبيت الله الحرام طريقا في الصحراء. عطش في الطريق ولكنه ما لبث أن رأى خيمة صغيرة فذهب إليها وطلب ماءً. كان الماء الذي قدمته إليه صاحبة الخيمة حارا حرارة النار ومالحا مثل ماء البحر، وعندما شربه أحرق الماء شفتيه ومعدته وما بينهما. عندها أشفق الرجل على المرأة وقال لها:

"ما دمتِ قدمتِ لي هذا المعروف، فأنا أيضا أود أن أقدم لك معروفا. هناك مدينة البصرة ومدينة بغداد، وهما قريبتان من هنا. في هاتين المدينتين مياه عذبة كالزلال، وأصناف وأنواع عديدة من الأطعمة اللذيذة.. ثم إن الإنسان -حتى وإن كان أعرج- يستطيع الذهاب إليهما. فلماذا تبقون في هذه الصحراء الموحشة المحرومة من كل شيء وتحرمون أنفسكم من الملذات؟"

هكذا نصحها الرجل. وبعد قليل أتى زوج المرأة وفي يده فئران قد اصطادها من الصحراء. قامت المرأة فشوت الفئران، وقدمت بعضها إلى الضيف، فأكل الرجل بعضا منها على مضض. وبعد أن أقبل المساء نام الرجل خارج الخيمة. وفي تلك الليلة ذكرت المرأة لزوجها ما قاله الرجل لها وسألته عن رأيه في الأمر. فقال الرجل لزوجته: "أيتها المسكينة! لا تسمعي لمثل هذا الكلام، لأن الحساد كثيرون في هذا العالم. وهؤلاء الحساد عندما يرون الآخرين وهم يرفلون في النعيم يحاولون أن يحرموهم من تلك النعم".

هكذا يتصرف قليلو الإدراك، حيث يعزون رحمتك إلى الحسد، فيخسرون نعمة كبيرة كان من الممكن لهم الحصول عليها بجهد قليل.

في هذه الحكايات كان التبن أو الفأرة رمزا لمتاع الدنيا. وهل متاع الدنيا من سقط المتاع لهذه الدرجة؟ إن كان كذلك، ألا يستوجب أن نشفق ونتحسر على الذين يصرفون كل جهدهم لنيل هذه النعم؟

يرى الرومي أن نشفق على هؤلاء ونقول:

"يا عاشق الدنيا! من جدّ وجد. ولكن ألا يجب أن يكون ما تسعى إليه يستحق منك هذا التعب! إن حالك تشبه حال صياد الخنزير، فهذا الصياد المسكين أتعب نفسه وجواده وكلبه إلى درجة الإرهاق والمرض في تعقب الخنزير. وعندما اصطاده في الأخير، لم يستفد لا من لحمه ولا من جلده ولا من سنه، فترك جثة الخنزير وندم على جهده وتعبه".

وفي تشبيه آخر، شبه المشغوف بالدنيا بالثعلب الذي صاد طبلا؛ فقد سمع أحد الثعالب صوت طبل معلق على شجرة، كانت الأغصان كلما ضربت على الطبل بتأثير الريح كان يحدث صوتا قويا. فحسب الثعلب أن هذا الطبل بصوته القوي لابد وأنه يملك لحما كثيرا، فحاول حتى المساء الحصول عليه، وعندما حصل عليه مزقت شوكة لأحد الأغصان هذا الطبل، فلم يجد الثعلب فيه شيئا سوى رائحته الكريهة فبدأ يبكي على نحسه وضياع تعبه مثلما يبكي عاشق الدنيا على نفسه عند احتضاره.

- لا يمكن معرفة قيمة شيء إلا بعد مقارنته بشيء آخر. إذن بأي شيء نقارن الدنيا لنعرف ما إذا كانت ذات قيمة أم دون أي قيمة؟

يظهر هوان الدنيا عندما نقارنها بالآخرة ونعمها. والبعض يخسر الأفضل بسبب طلبهم متاع الدنيا فحسب.

وتشبه حال هؤلاء حال ذلك المسكين الذي ضحى بالسكّر في سبيل الطَّفل.

هل السكّر أفضل أم الطَّفل؟

ابتلي أحد الأشخاص النهمين بعادة ومرض أكل تراب القصار (الطَفَل). فذهب في أحد الأيام إلى دكان بائع السكر ليبتاع بعض السكر. كان بائع السكر شخصا محتالا ويعرف ضعف المشتري نحو الطَفَل فقال له:

- إن السكر عندي من النوع الجيد، وليكن بعلمك أني أستعمل في كفة الميزان قطعتين من الطَفَل عند وزن السكر.[٨]

هكذا أثار البائع زبونه بذكر كلمة الطَفَل، ثم دخل إلى داخل دكانه ليقطع مكعب السكر. رأى الزبون الفرصة سانحة له، فلم يصبر وبدأ بتناول بعض الطفل من جهة وبترصد البائع من جهة أخرى خوفا من انكشاف أمره. كان البائع الماكر يعرف ما يجري، يضحك بصوت منخفض ويقول في نفسه: "كل أيها الجاهل كل! أنت تخاف من أن أراك، وأنا أخاف من أن تأكل القليل. أنا أبدو مشغولا هنا، ولكني لست مغفلا، بل لكوني ماكرا. الطفل ليس أغلى من السكر. إذن فكل قدر ما استطعت لكي يخف الوزن فأعطيك سكّرا أقل.

وكما هو واضح، فإن كانت نِعم الدنيا طَفَلا فنعم الآخرة سكّر. والأبله هو الذي يبدل السكّر بالطفل فيخسر زاعما أنه قد فاز.

وبيت الشعر الآتي يفسر لنا هذا اللغز. إذ كيف يستطيع الشخص المنبهر

---

(٨) يضع العطار أو أي بائع ثقلا في احدى كفتي الميزان ليقابل وزن الوعاء الذي يحوي الشيء المبيع. هنا يضع البائع السكر في وعاء ويضع الوعاء المحتوي على السكر في كفة، وثقلا إضافيا معادلا لثقل الوعاء الفارغ في الكفة الأخرى. هنا كلما أكل المشترى من الطفل فسيشتري سكرا أقل.(المترجم)

بالنعم الزائلة للدنيا الإعراضَ عن نعم الآخرة التي هي أجمل وأفضل وأبقى من نعم الدنيا؟!

أيها المسكين الذي

لا يصبر على الحرمان من هذه الدنيا الدانية!

فكيف تستطيع التحمّل

على الحرمان من الآخرة ومن المولى ﷻ؟

- إذا كانت الدنيا لا قيمة لها، إذن فأغنياء الدنيا ليسوا أغنياء في الحقيقة!

- بالتأكيد. وكما تعلم فإن الذين تطلق عليهم كلمة "الزاهد" هم الذين يقنعون بالقليل. ولكن اقرأ النكتة الآتية لتعرف من هو الزاهد الحقيقي.

مَن هو الزاهد؟

قال أحد السلاطين لدرويش فقير: أيها الزاهد!

فقال الدرويش:

- كلا، لست أنا بالزاهد بل أنت الزاهد.

- أنا! كيف أكون زاهدا والدنيا كلها ملكي؟!

- كلا، نصيبك من الدنيا أنتَ لقمة وملبس. بينما الدنيا والآخرة لي. إذن فأنت أحق بصفة الزهد مني.

شيء يحير! فكيف يبدو لمعظم الناس أن الطَفَل أغلى وأهم من السكر، والدنيا أغلى وأهم من الآخرة؟

لأن الدنيا لص لبق حلو اللسان وهي ماهرة في الخداع. فكم من أبطال انخدعوا بلسانها اللبق ووجهها الضاحك وضاعوا.

والآن لنقرأ النكتة المتعلقة بهذا الموضوع.

الدنيا، سارقة قماش العمر

في مكان ما، كان أحد القصاصين يتكلم بكل بلاغة عن حِيل الخياطين

وكيف يخدعون زبائنهم بكلامهم الكثير، ويسرقون منهم جزءًا من أقمشتهم. كان أحد الأتراك يستمع إلى هذه الحكايات، وفي الأخير غضب غضبا شديدا وسأل القصاص:

قل لي من هو أمهر هؤلاء الخياطين في الخداع في هذه المدينة؟

فقال القصاص: هناك خياط اسمه "جِغَر أوغلو" هو أمهر خياط في الخداع في هذه المدينة.

قال التركي: إنني أراهن على أنه لا يستطيع سرقةَ ليس قماشا فحسب، بل ولا خيطا واحدا لي.

نبّهه القصاص وحذّره قائلا له: لا تكن واثقا بنفسك كل هذه الثقة. إنني أعرف أناسا كانوا أكثر حذرا منك ولكنه استطاع خداعهم. فأنصحك أن تبتعد عنه بدلا من أن تخسر رهانك.

عندما ازداد هذا النقاش زاد غضب التركي وقال لمن حوله:

"هذا حصاني، إنني أراهن عليه، فإن استطاع ذلك الخياط سرقة قماش مني فالحصان لكم. ولكن إن كنت أنا الغالب فإني أطلب منكم أن تعطوني حصانا."

وهكذا دخل التركي في رهان مع الحاضرين. وطوال مساء ذلك اليوم انشغل باله بذلك الخياط فلم يستطع النوم. كان يقلب في ذهنه الخطط التي سيطبقها أمام الخياط لكي لا ينخدع به. يضع خطة ثم لا يرضى عنها فيفكر في خطة أخرى.

وأخيرا عندما أصبح، أخذ قطعة من قماش فاخر وذهب إلى ذلك الخياط. استقبله الخياط بكل حفاوة وترحاب وبدأ يتكلم معه بكل لباقة ويغرد مثل البلبل في كلامه. ولكن التركي كان عازما على ألا ينخدع، لذا لم يهتم بكلام الخياط. فقدم له القماش وقال:

"أريد أن تخيط لي من هذا القماش لباس حرب، ويجب أن يكون ما تحت الخصر واسعا وما فوقة ضيقا".

قام الخياط بقياس بدن التركي، وحَسِبَ مقدار القماش الذي يتطلبه هذا اللباس، وكان في أثناء ذلك يروي له قصصا جميلة عن الأمراء السابقين. وكلما طال كلام الخياط تبدلت حال التركي ولم يعد في حاله التي كان عليها عندما دخل الدكان، وبدأ يضحك من الحكايات الطريفة المضحكة التي يرويها الخياط. وكلما ضحك ضاقت وانسدت عيناه الضيقتان، فانتهز الخياط هذه الفرصة فَقَصَّ بسرعة جزءً من القماش وأخفاه بين فخذيه. عندما انتهت القصة الأولى كان التركي المسكين قد نسي ما جاء من أجله ونسى حصانه الذي أبقاه رهينة. فقال للخياط متوسلا:

"أرجوك أن تحكي لي قصة أخرى".

فقص عليه الخياط قصة مضحكة أكثر من السابقة، فأخذ التركي يقهقه بشدة. طبعا انتهز الخياط هذه الفرصة وسرق من القماش قطعة أخرى.

قال التركي: "لم أصادف في حياتي شخصا حلو الكلام مثلك لقد أحييتني، أتوسل إليك أن تحكي لي حكاية مضحكة أخرى".

فحكى الخياط حكاية مضحكة أكثر من الحكايتين السابقتين. ففقد التركي نفسه وانطرح على ظهره يضحك ويقهقه.

انتهز الخياط هذه الفرصة وقص قطعة صغيرة أخرى من القماش وأخفاها. وكان الخياط في الوقت نفسه يحدث نفسه:

"يا ويح هذا المسكين، كم هو مولع بالحكايات المضحكة، حتى إنه نسي وغفل عما يضره وينفعه. أيها المسكين، أنت بنفسك أصبحتَ حكاية مضحكة فهدرت حياتك، يا مسكين ما هذا الولع الصبياني بالحكايات؟ هل هناك شيء أدعى للضحك من حالك هذه؟". إن خياط القدر يخيط للعديد من المغفلين أمثالِك -الذين بلغوا المائة من عمرهم- ملابسَ الأطفال الصغار الذين لم ينضجوا بعد.

وعندما انتهت الحكاية الثالثة رجا التركي من الخياط حكاية رابعة، ولكن الخياط تأسف على حاله وقال له:

يكفي أيها المسكين! لي حكايات كثيرة، ولكن إن قصصتُ لك حكاية أخرى لن يبقى من قماشك ما يكفي، لا لملابسِ قتال فحسب، بل لن يكفي حتى لخياطةِ "صدرية"، ولو كنتَ تعرف حقائق الأمور لبكيتَ كثيرا ولضحكتَ قليلا جدا.

وهكذا فالدنيا تشبه ذلك الخياط، والشهواتُ تشبه تلك الحكايات. أما العمر فهو ذلك القماش، والمهارة تكمن في خِياطة ملابس للآخرة من ذلك القماش. ومن لم يستطع خياطة لباس الآخرة من هذا القماش، كانت حاله شبيهة بحال ذلك النيسابوري الذي كان يبيع الثلج.

فالمسكين كان قد وضع في شهر تموز الثلج أمامه، ولكنه لم يجد زبونا يشتريه فأصبح المسكين يبكي ويتأوه ويقول: لم يبق لي مال ولم يشتر الثلج مني أحد.

- إذن، فالإسراف الحقيقي هو إسراف العمر.

- تماما مثلما تقول. وحسب تعبير الرومي: "يا عزيزي، أنت تظن أن الإسراف هو في صرفِ بضعة قروش، أو تبذير حِمل حمار من الحنطة، أو تبذير الميراث في الصرف على المأكل والمشرب؛ إنما الإسراف الحقيقي هو إسراف العمر، لأنك لن تستطيع استرجاع ساعة واحدة من عمرك بمائة ألف دينار.

ولعل القارئ الذي قرأ ما قلته حتى الآن، سيحسب أن عليه أن يطلق الدنيا ولا ينشغل بمشاغلها. هل هذا هو المقصود من كل هذا الكلام؟

طبعا لا!

إذن ما المقصود من الدنيا؟

- ليس المقصود من الدنيا هو القماش أو المال أو الولد... الدنيا هي الغفلة عن الحق تعالى. ليس المقصود هو الانعزال عن الأعمال الحياتية، أو الامتناع عن الزواج وامتلاكِ الأولاد، إنما المقصود هنا ألا تحول هذه الأمور بين الإنسان وخالقه، وألا يقع الإنسان في غفلة. لأن الكسب الحلال الذي يتصدق منه المؤمن على أمور الخير، يكون زادا له يوم القيامة. والرسول ﷺ

يقول: "نعم المال الصالح للعبد الصالح" (رواه أحمد). يجب أن تكون الإمكانيات التي يملكها كل شخص كالماء التي تسبح عليه السفينة، وهذا الماء هو الذي يساعد السفينة ويمكّنها من بلوغ هدفها. ولكن إذا تسرب الماء إلى السفينة ودخلها أغرقها. عند ذلك تنقلب النعمة إلى نقمة. إذن، يجب الانتباه إلى عدم الإفراط في النعم الدنيوية الحلال. "ألا ترى كيف أن العديد من السلاطين عاشوا أقل من خدمهم. حتى الوردة، شربت الكثير من هذا الماء الفاني فذبلت قبل غيرها".

العقل– المعرفة وأنواع المعرفة

- لقد عرفنا تصرفات العديد من أنواع الموجودين على سلم الإنسانية تجاه الدنيا. والآن لنرجع مرة أخرى إلى الوراء، لنتعرف بشكل أكبر على الضوء الذي ينير درب المسافرين في صحراء الحياة. لقد أطلقتَ عليه اسم "ضوء العقل"، أليس كذلك؟

- بلى، العقل مثل قنديل، والمعرفة هي ضوء هذا العقل. وهذا الضوء ينير درب المسافر في الليل. وهناك ضوء أقوى نسميه "العشق". ولكن دعنا نبقى في محور العقل والمعرفة. الهدف الأساسي للإنسان هو النضج، ولا يمكن أن يكون هناك نضج دون معرفة، كما أن هناك فرقا بين معرفة ومعرفة. لذا يجب أن نعلم أي معرفة هي المعرفة المقبولة.

- إذن ليكن سؤالنا هو: ما صفة المعرفة المقبولة؟

- أولا يجب أن تكون المعرفة مفيدة وأن توسع أمامك الطريق وتفتحها: "ماذا أعمل بفكر وبمعرفة وبعلم لا يوضح طريق الخلاص للإنسان؟". يجب أن يكون للفكر وللعلم وللمعرفة فائدة كي يكون لها قيمة، حيث يمكن قياس قيمة كل فكر ومعرفة بمدى ما تجد من حسن القبول. يجب أن تكون الطريق التي فتحتها تلك المعرفة قد مر منها سلطان من قبل لكي تتوثق صلاحيتها". والآن لندرج نكتة تترجم هذه الأفكار.

عالِم النحو والربان

صعد أحد علماء النحو المغرورين إلى سفينة وقال لربانها:

"هل قرأت النحو يا صاحبي؟"

قال الربان: لا

فقال النحوي بأسلوب مهين: "يا لك من مسكين، لقد ذهب نصف عمرك هباء".

حزن الربان ولكنه سكت. بعد مدة هبت عاصفة هوجاء جعلت السفينة تغرق. قال الربان للنحوي الذي استبد به الخوف من الهلاك:

"يا نحوي، هل تعرف السباحة؟"

فأجابه: لا

قال الربان:

"لقد ذهب كل عمرك هباء يا صاحبي".

كما يُفهم من هذه النكتة، فليس كل معرفة مفيدة في كل مكان. فإن أن كنت تعمل في البحر لن تفيدك معرفتك للنحو أي فائدة. ومن جهة أخرى فالمعرفة ادعاء للوجود. لذا فأنت في البحر لست في حاجة إلى معرفة الوجود، بل إلى معرفة العدم. فكما أن الماء يُميت أولا ثم يحمل الميت على ظهره. فكن أنت أيضا كالميت ليحملك الماء، وإلا فمن الصعب أن ينجو من اليم مَن كان يعتمد على معرفته وقابليته فحسب.

- إذن، ما هي علاقة المعرفة بالأخلاق؟

- يجب أن تعرف أولا، أن المعرفة لا تعطي النتيجة نفسها عند كل إنسان. فالمعرفة خير في يد الإنسان الفاضل، وشر في يد الإنسان الشرير. "القيام بتعليم العلم والفن لمن لا يستحقه كإعطاء السيف لقاطع طريق".

كل معرفة تحمل مسؤولية على عاتق صاحب هذه المعرفة، لذا فجهل بعضهم خير لهم ولغيرهم.

والآن لنسرد حكاية تشرح كيف تكون هذه المعرفة سببا لكارثة.

الأحمق الذي أراد أن يتعلم لغة الحيوان

توسل أحد الحمقى من النبي موسى عليه السلام:

"أرجوك أن تعلمني لغة الحيوانات".

قال له موسى عليه السلام:

"من أين جاءتك هذه الرغبة يا مسكين؟ دعك من هذا الامر، فلست أهلا له. إن المعرفة تهلك من لم يكن أهلا لها".

ولكن الرجل أصر قائلا:

"إن لم تعلمني لغات جميع الحيوانات فعلمني على الأقل ألسنة بعضها".

على أثر ذلك علمه موسى عليه السلام لغة الديك والكلب. فعاد الأحمق فرحا إلى منزله. كان خادم المنزل قد نفض مفرشة الطعام إلى الحديقة. فأسرع الديك يلتقط فتات الخبز المتناثرة فاعترض الكلب عليه قائلا:

"أليس عملك هذا ظلماً لي؟ أنا لا أستطيع مثلك أكل الحنطة والشعير، وأنت الآن تأكل هذا الخبز الذي من المفروض أن يكون من نصيبي".

أجابه الديك:

لا تحزن، غدا ستجد أفضل من هذا بكثير، لأن حصان سيدي سيموت غدا وستُشبع بطنك من جثته.

ما إن سمع الرجل كلام الديك حتى أسرع بالحصان إلى السوق وباعه، فمات الحصان عند من اشتراه. فرح الأحمق لكونه تخلص من الضرر حسب ظنه. بينما كان يتسبب في الحقيقة في ضرر أكبر.

وفي اليوم الثاني استمع الرجل إلى حديث هذين الحيوانين تحت النافذة. كان يقول الديك:

لا تحزن، غدا ستموت جارية سيدي، وسيعمل سيدي طعاما لهذه المناسبة. وتقوم أنت بإشباع بطنك من العظام.

كان الرجل يحب جاريته، ولكنه ما إن سمع هذا الحوارَ حتى أسرع ببيع جاريته ظانا أنه قد تخلص من ضرر كبير. وكان يقول في نفسه: "كم أحسنتُ صنعا بتعلم لغة الحيوان".

في اليوم الثالث كان الكلب قد نحل جسمه جدا من الجوع فقال للديك منتهرا: أنت تخدعني. لم يقع ما كنت تقوله لي.

قال الديك: في الحقيقة أنا أيضا اندهشت من هذا الأمر. لأننا نحن معشر الديكة أمة لا نكذب وإننا من الحيوانات الجيدة عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ، نوقظ الناس إلى الصلاة. فهناك أمور تجري في هذه الأيام لا أعرف لها تفسيرا. ولكن لا تحزن لأن سيدنا سيموت غدا وسيقيم الوارثون مأدبة كبيرة، ولا شك أنك ستأخذ نصيبك من هذه المأدبة.

ما إن سمع الرجل هذا حتى طار عقله. إذ كان قد باع حصانه وجاريته والآن لمن سيبيع نفسه؟ كان قد أزال تلك المصائب الصغيرة التي كانت سدا أمامه أمام الأجل وكفارة له، والآن ها هو وجها لوجه أمام ملك الموت عليه السلام. فأسرع الرجل إلى النبي موسى عليه السلام مرعوبا من دنو الموت:

أنجِدْني يا نبي الله! خذ مني هذه المعرفة وارفع عن رأسي هذا البلاء.

قال له موسى عليه السلام: هيهات هيهات! كما لا يرجع السهم المنطلق من الوتر كذلك لا يرجع القدر الإلهي. ما يمكن عمله الآن هو الدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه أن ينقذ إيمانك.

هكذا هي المعرفة عند من ليس أهلا لها. فهذ الرجل بدلا من انتهاز فرصة لقائه بالنبي موسى عليه السلام والاستفادةِ منها لإحياء روحه، فضّل أن يخدم أهواءه فحفر بمعول المعرفة المعطاة له قبرَه.

فالحكاية -بجانب الاستخدام السيئ للمعرفة- تشير إلى أن على الإنسان أن يميز المعرفة اللازمة له من المعرفة غير اللازمة.

أجل، فالمعرفة غير اللازمة وغير المستخدَمة تكون عبئا على كاهل صاحبها.

«كم من عالم ليس له نصيب من علمه. إن هؤلاء ليسوا سوى حراسٍ وحمالين لمعارفهم».

يقول الله ﷻ في حق هؤلاء الذين لا يستفيدون من معارفهم بأنهم ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(الجمعة:٥). ومهما كان الإنسان عالما فإنه إن لم يستفد من علمه فهو جاهل.

- إذن فهناك فرق بين رؤية ورؤية، وبين معرفة ومعرفة.

- أجل، فكل طبع سيئ عند الإنسان يشكّل ستارا أمام السمع والبصر والعقل. لذا فهم لا يعرفون ما يجب معرفته، ولا يسمعون ما يجب سمعه، ولا يفهمون ما يجب فهمه... فحال هؤلاء تشبه حال الأشخاص الثلاثة في الحكاية الآتية:

أعمى يرى البعيد، وأصم يسمع جيدا، وعريان يرتدي تنورة طويلة

كان هناك في قوم سبأ ثلاثة أشخاص. كان أحدهم يرى الأشياء البعيدة جدا ولكنه أعمى. كان يرى النملة ولا يرى سليمان عليه السلام. وكان الآخر يسمع جيدا ولكنه كان أصم. كان كنزا ولكن دون ذهب. وكان الثالث عاريا ولكن ثوبه كان طويلا.

أليست هذه تعابير غريبة؟ ولكن ما القصد من كل هذه؟

لكي نفهم هذا علينا أن نصغي إلى شرح المثنوي:

"الأصم هو المغرور بطول الأمل. فهو يسمع عن موتنا ووفاتنا، ولكنه أصم تجاه موته. أما الطمع فهو الأعمى. إذ يتحدث وبالتفصيل عن عيوب الناس، ولا يرى عيوبه. أما العريان فهو يخاف دائما من قص تنورته. ياللعجب! وهل للعريان ثوب لكي يمكن قصه؟ أهلُ الدنيا مفلسون ولكنهم يخشون مع هذا من السرقة! كيف يخاف المفلس الذي لا يملك قرشا من اللص؟ الإنسان يأتي عاريا إلى الدنيا ويرحل منها عاريا. إذن فلِمَ يخشى السارق؟ يشبه هؤلاء من يرى في المنام أنه شخص غني فهو يرتجف خوفا من السراق. وإذا ما أيقظه أحد من منامه ضحك على حاله.

يتضح لنا أن رأس المعارف هو معرفة الإنسان نفسه. فيبدأ كل شيء بمعرفة

الإنسان لنفسه. ولكن أقل شيء يعرفه الإنسان هو نفسه في الحقيقة. ويلفت المثنوي أنظارنا إلى هذه الغرابة ويقول:

"يعرف العالمُ الكثيرَ من العلوم، ولكن هذا الظالم لا يعرف نفسه. صحيح أنك تعرف الحلال والحرام، ولكن أين تقف نفسك منهما؟ إنك تعرف قيمة كل متاع ولكنك لا تعرف قيمة نفسك. أيها الأحمق. تظن أنك تعرف نجم السعد ونجم النحس، ولكنك لا تعرف هل أنت من السعد أم من النحس".

- يا للعجب! يختار الإنسان المعرفة غير اللازمة ويترك المعرفة المليئة بالفوائد. أيمكن أن تعطي مثالا آخر على المعرفة غير اللازمة وغير المفيدة؟

ما أكثر مثل هذه الأمثلة، وما دامت القطرة تنبئ عن البحر، فلنكتف إذن بهذا المقال الصغير الآتي:

معرفة الأمير الأحمق

أرسل أحد السلاطين ابنه الأحمق إلى هيئة من العلماء لتعليمه، فقام العلماء بتعليمه العديد من الأمور حتى أصبح الابن بارعاً فيها. وفي أحد الأيام وضع السلطان خاتما في كفه وقال ممتحنا ابنه:

هل تستطيع أن تعرف ما في كفي؟

قال الابن:

إنه شيء دائري فارغ في الوسط وأصفر اللون.

فرح السلطان:

- لقد عرفتَ صفاتهِ بشكل صحيح. قل لي إذن، ما هذا الشيء الذي يمكن أن يحمل هذه الصفات؟

- المنخل!

- يا للغرابة! كيف عرفتَ كل تلك التفاصيل، ولم تعرف أن راحة اليد لا تسع المنخل؟!

ويرى جلال الدين الرومي أن علماء زماننا هم من هذا النمط. إذ يعرفون أدق التفاصيل عن الأمور التي لا تعنيهم، ولكنهم لا يعرفون أنفسهم مع أنها أقرب شيء إليهم. فاللون والدائرة والفراغ أشياء فانية تزول كلها في النار، ولا يبقى سوى الجوهر.

والخلاصة أن علم أهل القلوب هو مثل الحمال الذي يحمل صاحبه، أما علم عُبّاد الجسد فليس إلا حِملا وعبئا على صاحبه.

علاوة على المعرفة غير اللازمة وغير المفيدة فهناك من يتظاهر بالعلم مع أنه لا يعلم، ويقوم بتكرار أقوال الآخرين هنا وهناك. فما رأيك؟

- هو كما تقول، إلا أن تلك المعرفة المصطنعة والأقوال المأخوذة من الأخرين دون فهم لا تفيد صاحبها. أما الفرق بين الصاحب الحقيقي للمعرفة ومقلده فهو موضح في الحكاية الآتية:

الجراء التي تنبح في بطن أمها

في إحدى الليالي رأى صوفي -وهو في خلوته- مناما.. رأى كلبة حاملة وجراؤها تنبح في بطنها. احتار الصوفي، وقال في نفسه:

هذه الجراء لا تطارد ذئبا ولا تستطيع صيدا ولا حراسة، فلماذا إذن تنبح! فانتهى إلى سمعه صوت يقول: "إن هذا يشبه حال الجهلاء الذين يتكلمون دون علم ولامعرفة".

الخلاصة؛ أن كلامنا وأفكارنا يجب ألا تكون مستعارة من الآخرين، بل تكون من صنعنا. علينا أن نفكر بعقولنا، وعلينا أن نطير بأجنحتنا:

إن أردت النظر
فانظر بعينك ودع التقليد
وإن أردت التفكير
ففكر بعقلك وليس بعقل غيرك.
فمثل هذه المعرفة فقط تكون لك ولشخصك.

- فماذا إذن تشبه هذه المعرفة؟

- تشبه هذه المعرفة نبعا لا ينقطع ماؤه ولا ينضب.

"النبع الموجود في البيت، أفضل من نهر في الخارج".

المعرفة المنسوبة إلى الآخرين تشبه الماء المجلوب إلى قلعة من الخارج. حيث ينفع هذا الماء في أوقات السلم فقط، أما في أوقات الحرب وعندما يحاصِر الأعداءُ القلعة، فينقطع هذا الماء فيصبح مَن في داخل القلعة في ضيق وعجز. وفي مثل هذه الحالة يكون الماء الأجاج داخل القلعة أفضلَ من الماء العذب خارجها.

وفي تشبيه آخر: إن معارف المقلد تشبه الصدى المنعكس من الصخور، فهي لا تملك عمرا. ويرى مولانا جلال الدين الرومي أن المعرفة الحقيقية هي المعرفة المستقاة من الوحي، فمثل هذه المعرفة خالدة لا تموت ولا تفنى أبدا. يقول الرومي: "هل يمكن للجبل أن يصدر صوتا بنفسه؟! فيا أيها الرجل الساذج، ما يأتي من الجبل ليس سوى صدى أصوات الآخرين. إن أقوالك المستعارة من الآخرين عبارة عن صدى صوت الآخرين، وكذلك فكل أحوالك مستعارة. متى ما صدر منك صوت أصيل، تستطيع آنذاك أن تطير بجناحيك. انظر إلى السهم الذي يطير بجناح الغير، هل يكون له نصيب من لحم الطير الذي يصيده؟ الباز يصيد في الجبال، ولكن لعدم قدرة سيطرته على إرادته، لم يستطع أكل الحجل أو الطير الذي يصطاده، بل تكون من نصيب السلطان. من ثم فإن كل قول لا ينتسب إلى الوحي عبارة عن أهواء، ويشبه التراب والغبار ويضيع في الهواء. وأقوال الرسول ﷺ لا تفنى، بل هي خالدة، لأنها لم تكن صادرة عن أي هوى، بل كانت ترجمانا لوحي الله ﷻ".

ولعل ما نستخلصته من كل هذه المواضيع، هو أن المعرفة ليست مطلوبة لذاتها، ومهمة المعرفة خدمة القيم الأسمى منها. فما هذه القيم؟

- نحن نطلق عليها اسم الوصول أو النضج.

- إذن لنتعرف على درجات الوصول.

- الوصول هو أن تكون كما يريد الله منك أن تكون. وفي سبيل هذا على المرء أن يترك عاداته السيئة ويتحلى بالأخلاق والعادات الفاضلة. وطبعاً يحتاج كل هذا إلى إيمان قوي راسخ.

مهمتك في هذه الدار؛ أن تتطهر وتصبح إنسانا ناضجا

- حسنا، لنبدأ موضوعنا أولا بأهمية ترك العادات السيئة. ولكني أريد قبل هذا أن أعرف ما هي غاية النضج؟ وما الذي يكسبه الإنسان بالنضج؟

- لقد أُرسل الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يكون إنسانا حقيقيا، ومن نجح في هذا، يكون قد نجح في أداء مهمته. وبهذا النجاح يكسب الإنسان نفسه أولا.

- وكيف ذلك؟

- لكي تعرف، استمع إلى المثنوي.

لا يمكن أن تهرب من نفسك

"الذي يهرب من غيره، يتوقف عندما يبتعد عنه ويتخلى عن الهروب. أما أنا، فعدو نفسي وأود أيضا الهروب منها بقصد النجاة. ولكني عندما أهرب أصطحبها معي أيضا، أي إني لا أستطيع الهروب والتخلص منها مهما حاولت. لذا كان شغلي الشاغل هو الهرب دون توقف حتى يوم القيامة. فإن كان ظل الإنسان عدوا له، فلن يذوق طعم الأمان لا في الهند ولا في هوتان. يا صاحب الفطرة السليمة! سيأتي يوم تفقد فيه كل أموالك وأملاكك. أما إذا كنتَ أنت الكنز والمال والمُلك. فلا زوال لهذا الكنز أبدا".

- هذه الأقوال تذكرني بكتاب "E.Fromm" المعنون بـ"أن تكون أو أن تملك" فهو يقول: "كان القدماء ينظرون إلى ذواتنا وقيمتها، أما المعاصرون فينظرون إلى قيمة ما نملك من أموال..".

-إذن فاطلب أنت الشيء الذي لا يزول.

- أن يكون الإنسان كنزا؟! ولكن كيف يستطيع هذا؟

- لكي يكون الإنسان كنزا، عليه أولا أن يعرف عيوب نفسه وأن يتطهر منها. وإلا فلا توجد هناك أي فائدة في رؤية عيوب الآخرين. والحقيقة أن العيب الحقيقي هو رؤية العيب في كل شيء. وهل يعقل أن يرى صاحبُ الروح التي تتجول في عالم الماوراء، عيوبَ الناس.

- إذن رأس العيوب هو رؤية العيوب.. فِعلا إنه شيء غريب!

- أجل، رؤية العيب ترتدّ عيبا إلى الإنسان. والذين اتخذوا رؤية عيوب الآخرين عادة لهم، يقعون في موقف مضحك جدا وهذا ما يشرحه لنا الرومي في نكتة الصلاة أدناه:

لقد فسدت صلاتك

ذهب أربعة هنود إلى الجامع للصلاة، في هذه الأثناء دخل المؤذن إلى الجامع، فقال أحد الهنود ناسيا أنه في صلاة:

هل رُفع الأذان؟

فوكزه الهندي الثاني قائلا:

لقد تكلمت ففسدت صلاتك.

قال الهندي الثالث للثاني:

يا مسكين، انشغل بصلاتك بدلا من الانشغال بصاحبك. ففرح الهندي الرابع وقال بصوت عال:

الحمد لله، لم أفسد صلاتي مثلما فعل هؤلاء الحمقى.

وهكذا فسدت صلاتهم جميعا.

لماذا يرى بعضهم الجمال في كل شيء، بينما يرى آخرون القبح في كل شيء؟ من أين يأتي هذا الاختلاف؟

- لنبحث عن جواب هذا السؤال في الأبيات الآتية:

من تعلق قلبه بخصلة واحدة

ولم ير سواها

تبدو الجنة له قبيحة.

رؤيتك للعالم هي بقدر إدراكك

عواطفك الملوثة تصدّك عن رؤية النظافة

إذن، فاغسل حاسة رؤيتك بماء النظر

واعلم أن المتصوفة هكذا يغسلون ملابسهم

لأنك عندما تتطهر، تُرفع الأستار أمامك

وتسرع إليك النفوس الطاهرة.

- لقد انشغل فكري بأولئك الهنود المصلين. ولكن إن لم ينبّه أحدٌ إلى الخطأ فكيف يعرف المقصّر قصوره وكيف يستطيع تصحيح أخطائه؟

- هناك فرق شاسع من قول لآخر. يجب أن يكون هذا الذاكر كالمرآة وكالميزان. المرآة والميزان لا يخفيان الحق. أما العدالة والصواب فهما سبب وجودهما وحكمته وجودهما. فلو خدمتَ المرآة والميزان وقدمتَ إليهما كل إحسان، فلن ينافقا من أجلك. فهما رمز الحق والصواب لا يظهران سوى الحقيقة. وهما يقولان لك: "يستحيل أن تقوم المرآة والميزان بأي حيلة. إذن، فالأفضل أن تترك عاداتك السيئة".

هذا ما تقوله لك المرآة والميزان بلسان حالهما. إذن أليس اللائق بالشخص المقصّر أن يصيخ بسمعه للحقيقة؟ ولكن الأسهل على الإنسان هو القيام بلوم المرآة بدلا من قبول عيوبه.

والخلاصة: أن ردود أفعالنا في مثل هذه الأمور هي رد فعل الزنجي كما في الحكاية الآتية:

الزنجي يغضب على المرآة

رأى شخص دميم قطعة مرآة تلمع بين التراب في الطريق، ولم يكن رأى في حياته مرآة قط. انحنى الدميم وتناول هذه القطعة اللامعة ونظفها بطرف ثوبه ثم رفعها أمام وجهه، ولكنه ما إن رأى صورته الدميمة حتى غضب ورمى المرآة

من يده قائلا: "قبحك الله من مرآة سيئة! لو لم تظهري كل شيء بشكل قبيح لما رماك الناس في هذه المزبلة".

- حسنا، فلنقل أنني وصلت إلى درجة كافية من النضج وأصبحت أرى عيوبي. من أين أبدأ في التربية؟

- ابدأ بتربية نفسك وروحك أولا. لأنهما يشبهان الحوض، وتشبه تصرفاتُك الحنفيةَ. فلا يسيل من الحنفية سوى ما هو موجود في الحوض. فإن كان في الحوض عسل، سال من الحنفية عسل، وإن كان فيه حليب سال من الحنفية حليب. وكل حاسة من الحواس الخمس تشبه الحنفية المرتبطة بالحوض وتتصرف حسب الأوامر.

والحقيقة أن مسألة التصوف ليست مسألة مظهر وصورة، بل مسألة لب وجوهر. يقول الرومي:

"مَن أراد سلوك طريق التصوف فعليه أن يطهر نفسه من أدرانه الداخلية. فالتصوف ليس في لبس الصوف أو اتخاذ الخياطة مهنة أو المشي البطيء في وقار".

برصيصا

كان هناك في بني إسرائيل شخص عرف بالزهد واشتهر به اسمه "برصيصا". وكان الماء الذي ينفخ فيه ينقلب إلى دواء وشفاء لشاربه. وانتشرت شهرته في الآفاق حتى أصبح الأطباء دون عمل. كان الشيطان يكره هذا الزاهد كل الكره حتى كان يقضم الحديد من غيظه وسخطه، ولكنه لم يكن يجد حيلة حياله. وفي أحد الأيام دعا أولاده وسألهم:

مَن منكم يستطيع أن يخلصني من هذه المشكلة؟

قال أحدهم:

أنا أستطيع أن أخلصك منها. فقال برصيصا:

إذا استطعت هذا فستكون ولدي الحقيقي الحبيب إلي، ونور عيني.

فكر ابن الشيطان مليا فلم يجد وسيلة أفضل في تضليل الزاهد، ولا سلاحا

أمضى من النساء. وقد أدرك أن شهوة الطعام والمال لا تجديان، لأنهما لا تملكان نفسا لكي تدعوك، فهما جانب واحد. ولكن أمر النساء أمر مختلف، فأنت تحب المرأة، والمرأة تحبك. وثقب الجدار من الطرف الواحد صعب، ولكنه سهل إن قام شخصان بثقب الجدار من الطرفين. وبعد الوصول إلى هذا القرار جاب ابن الشيطان الدنيا ووجد ضالته في امرأة جميلة ونبيلة المحتد، حيث كانت هذه الحسناء بنت السلطان. دخل الشيطان عقل هذه البنت فأفقدها صوابها، وعندما عجز الأطباء عن شفائها جاء الشيطان إليهم في زي زاهد وقال لهم:

إن كنتم تريدون شفاء هذه البنت فأرسِلوها إلى "برصيصا" فينفخ فيها فتشفى.

ففعلوا كما أوصاهم وشفيت البنت. وهكذا خطا الخطوة الأولى في الحصول على ثقة السلطان. ثم دخل إلى رأس البنت مرة أخرى ليزيد من جنونها. ثم قال لهم:

أرسلوا البنت مرة أخرى إلى "برصيصا". ولكن دعوها هناك مدة أطول لكي تشفى تماما.

وكما ورد في الحديث النبوي: "لا يخلونّ رجلٌ بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان"(رواه الترمذي). غفل الزاهد عن هذه الحقيقة واستهان بأهواء النفس فدفع ثمن هذه الغفلة غاليا. فكلما طالت مدة البقاء أحس كل منهما بالميل نحو الآخر. وفي النهاية أصبحت البنت حاملا. ذهب الشيطان إلى الزاهد في زي صديق وسأله عن هذا الأمر فأخبره الزاهد بكل شيء، فأوصاه الشيطان أن يقتل البنت ويدفنها، فامتثل الزاهد لهذه التوصية. ذهب الشيطان إلى السلطان وأخبره بشفاء ابنته، إلا أن الزاهد "برصيصا" أخبر رجال السلطان الآتين إليه بأن البنت قد توفيت وأنه دفنها.

ذهب الشيطان إلى السلطان في زي آخر وأخبره بما فعل الزاهد. أنكر الزاهد جريمته، ولكن السلطان عندما حفر المكان الذي دله عليه الشيطان وجد ابنته المقتولة. فحكم على "برصيصا" بالإعدام، وقُبيل إعدامه جاءه الشيطان في زي آخر وقال له:

لقد كنتُ وراء كل هذه المصائب التي لاحَقَتك. والآن إن سجدتَ لي فسأقوم بإنقاذك.

سأل برصيصا:

كيف أسجد والحبل حول رقبتي؟ فأجابه الشيطان:

تكفي إشارة سجود من رأسك.

وعندما حرك "برصيصا" رأسه للسجود ضاق الحبل حول رقبته أكثر، فتألم أكثر وقال له الشيطان ما جاء في الآية الكريمة: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(الحشر:١٦). إن صداقة النفس والشيطان ومن يشبه الشيطان، لا تدوم حتى توصل صاحبها إلى حبل المشنقة.

حكاية ذات عبرة، كأنني قرأت رواية "فاوست" لـ"جوته" أو كتاب "تاييس" لـ"أناتول فرانس". والحكاية تؤكد -بجانب عدم جواز الثقة بالنفس- على أهمية الحذر من صديق السوء. والنتيجة التي نخلص إليها هي أنه ما دامت تربية النفس بمثل هذه الصعوبة، إذن فقيمة كل إنسان تقاس بمدى نجاحه في هذا المضمار.

هذا صحيح. ففي الحكاية أدناه يجب النظر من هذه الزاوية إلى من هو السلطان ومن هو العبد.

أتحسب أنك سلطان؟

قال أحد السلاطين لشيخ فقير:

"أنت فقير جدا، قل لي ماذا تطلب لكي أساعدك".

غضب الشيخ وقال منتهرا له:

"كيف تقول هذا وأنت عبد لعبدين عندي؟ ألا تخجل من نفسك؟"

دهش السلطان وسأل:

"يا للعجب، ومن هما سيداي اللذان هما عبدان عندك؟"

أجاب الشيخ:

"أولهما الغضب والآخرة الشهوة. هما عبدان عندي، ولكنك أصبحت عبدا في يديهما."

- ما أروعه من جواب! إذن فالسلطنة الحقيقية هي التصوف أو بالأحرى التطهر. أي التطهر من أدران النفس. قل لي، أهناك موجبات أخرى للتصوف؟

- مِن أهم شروط التصوف أن يكون الإنسان "ابن الوقت". وهذا يعني الشعور القوي بالوقت. "اعلم قيمة اللحظة التي أنت فيها، واعلم أن الحياة فرصة ثمينة واشتغل بها. لا تحزن على ما فات، ولا تخف مما سيأتي". أي ما دام الزمن عبارة عن لحظة فلا تضيعها، بل اخدمها مثلما تخدم ولدك. وخدمة الوقت وإيفاء حق الوظيفة تجاهها تكون بعدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد.

كل عادة قبيحة في الإنسان تشبه شوكة، فانظر إلى حكاية الرجل الذي كان يؤجل على الدوام قلع الأشواك إلى الغد.

اقطعْ الأشواك

زرع أحدهم أشواكا على الطريق. فكلما كبرت الأشواك زاد عدد الذين أدمت أرجلهم هذه الأشواك ومزقت ملابسهم. وكلما قال والي تلك المدينة له: "اقطع هذه الأشواك التي أضرت بالناس". قال: "غدا سأقطع... الأيام القادمة كثيرة". وهكذا كان يؤجل هذا الأمر حتى مرت السنوات.

في أحد الأيام قال له الوالي: "الأشواك تقوى على مر الأيام، وأنت تضعف بمرور الأيام وتهرم. إن لم تقلعها الآن فمتى ستقلع؟"

- قصة ذات عبرة. ولكن لماذا لا يرى الإنسان عيوب نفسه؟ فإن رآها لماذا لا يستطيع قلعها؟

- الذين أصبحت هذه العيوب متأصلة في نفوسهم، وطبعا من طباعهم، لا تبدو لهم عيوبا. ولكن من كانت فطرته سليمة فإنه ما أن يتورط في إثم حتى ينتبه له ويعزم على الخلاص منه.

بما أن الخير أصيل في الإنسان فكيف لا ينجرح قلبُ ووجدانُ من يقترف الشر والاثم؟

الوجدان يكون حساسا أمام الإثم الأول. ولكن هذه الحساسية تزول عندما يتكرر اقتراف الإثم كما هو واضح في الحكاية الآتية:

حكايةُ "عظيم"

خرج أحد بني إسرائيل -واسمه عظيم- من بيته بنية سيئة. فرأى في طريقه صخرة كبيرة ورجلا يحاول رفع تلك الصخرة. بدأ "عظيم" يراقب الرجل. كانت الصخرة ثقيلة يصعب تحريكها من موضعها. ذهب الرجل وأحضر صخرة أخرى ووضعها فوق الأولى. هنا بدأت الصخرتان تتحركان، ثم ذهب وجاء بصخرة ثالثة وضعها فوقهما، ثم رفع هذه الصخور الثلاث دون عناء، ثم استمر في طريقه. دهش "عظيم" إذ كيف استطاع الرجل رفع الصخور الثلاث مع أنه كان عاجزا عن رفع صخرة واحدة منها. وصل "عظيم" في طريقه إلى مدينة كبيرة وجد على بابها شيخا كبيرا فأخبره بالأعجوبة التي رآها.

قال له الشيخ: هذه الصخور تمثل الذنوب. فالذنب الأول للإنسان يبدو له كبيرا لا يستطيع حمله. ولكنه عندما يقترف ذنبا آخر يخف هذا الذنب. وعندما يقترف ذنبا ثالثا تبدو الذنوب خفيفة عنده وطبيعية واعتيادية.

- التعود أولا ثم.. وهل هناك شيء بعد التعود؟

- نعم هناك شيء بعد التعود. ما إن يتعود الإنسان على شيء -حسنا كان أو قبيحا- حتى يتحول بمرور الزمن إلى طبيعة. أي إن القبح لا يبدو له قبيحا، بل يتحول إلى حاجة عنده. لمثل هذا الرجل تبدو الوردة شوكة والمسك قطرانا، تماما مثل حكاية الدباغ الذي أغمي عليه في سوق العطارين.

لماذا يغمى على الدباغ

في أحد الأيام مر دباغ في مدينة قونية. كان يقضي كل وقته في دبغ الجلود وفي جو من الروائح الكريهة في زقاق العطارين. وفي وسط الزقاق أغمي

عليه، وكأنه تلقّى ضربة قوية على رأسه. أسرع إليه من كان حواليه وكشفوا عن صدره، وقربوا العطور من أنفه ليستفيق، ولكن حال الرجل كانت تزداد سوءًا. وأخيرا عندما يئسوا أرسلوا إلى أهله بخبره. فأسرع إليه أخوه، وعندما عرف ماهية الموضوع أبعد الناس المجتمعين حول أخيه، ثم أخرج خفية من تحت أبطه قطعة من روث الحيوان وقربها إلى أنف أخيه المغمى عليه الذي ما لبث أن أطلق آهة فرح واستفاق وقام واقفا على رجليه.

كما هو واضح من الحكاية، فإن الروث أو أي قذارة يمكن أن تتحول بمرور الزمن إلى حاجة. والدليل على هذا أن الجثة تبدو للإنسان قذارة ولكنها شيء لذيذ بالنسبة للكلاب والخنازير. وحسب رأي "الرومي"، فالذنب -كما يقول الرومي في المثنوي- يشبه الصدأ الواقع في الحديد، فإن لم يتم تنظيفه في الحال يبدأ بقرض الحديد شيئا فشيئا. كذلك فإذا كتبت كتابة على ورق أبيض سهلت قراءتها، ولكن إن كثرت الكتابات وتشابكت وزاد سواد الورقة استحالت القراءة، وإذا تم الاستمرار على هذا المنوال تحولت الورقة إلى قطعة سوداء كسواد قلب الكافر.

- ولكن حسبما نعتقد فإن جميع الناس -عدا الأنبياء- لا يخلون من الأخطاء والذنوب، وإن الذنب الأول بدأ مع الإنسان الأول، إذن، يجب التمييز بين اقتراف ذنب بسبب القصور البشري وبين تحول الذنوب إلى عادة وطبيعة في الإنسان.

- هذا صحيح بلا منازع، لأننا نملك في يدنا ممحاة تمحو ذنوبنا نسميها بـ"التوبة". لذا نرى أن آدم عليه السلام بتوبته أصبح من المكرّمين، بينما عندما أصر إبليس على ذنبه وركبه الغرور أصبح من الملعونين. إذن، فليس معنى هذا أن الإنسان الجيد يكون خاليا من الذنوب. فعلى كل من يقترف ذنبا نتيجةً للطبيعة البشرية القاصرة، أن يتوجه إلى الله تعالى ويطلب منه العفو والمغفرة. ومع أن التوبة تكون مقبولة، إلا أن الاعتماد عليها للاستمرار في الذنوب وجَعلِها عادة وطبيعة ليست جائزة ولا مقبولة. والحقيقة أنه ما من أحد إلا ويتوب قبل موته،

ولكن قد يكون الوقت فات وأغلق دفتر التوبة. فالتوبة لها شروطها وأوانها.

- أعتقد أننا انتهينا هنا من شرح أسس الأشياء التي يجب علينا تجنبها من أجل النضج. وما الذي بعد ذلك؟

- لمعرفة هذا، علينا الرجوع إلى النكتة الأولى وذكرها. فقد ذكرنا حكاية الموظف المرسل إلى هذه الدنيا والسلطان الذي أرسله. وحاولنا التعرف على هذا الموظف، ثم تحدثنا أخيرا عن الأمور التي يجب تجنبها في سبيل الوصول إلى النضج الإنساني. والآن لنتمعّن في علاقة ذلك الموظف مع السلطان الذي أرسله في مهمة إلى هذه الدنيا.

- على أي أسس تقوم هذه العلاقة؟

- لقد ذكرنا هذا من قبل، وقلنا إنها تقوم على علاقة ثنائية هي علاقة (الله-العبد) أي، الإيمان والعبادة. فعلى الإنسان أن يؤمن أولا بوجود الله لكي يقوم بعد ذلك بإيفاء حق جميع الوظائف والمهام الأخرى حسب أوامره ونواهيه. لذا وردت مواضيع عديدة سواء في المثنوي أو في المؤلفات الأخرى، تتحدث عن الله ووجوده وعما إذا كان في الإمكان معرفته عن طريق العقل أم لا. وكذلك حول الأديان والأنبياء والكتب السماوية والقدر وغيرها من المواضيع المتعلقة بالإيمان.

الإيمان وأسسه

إذن، سيكون سؤالنا الأول: أيمكن إدراك الله بالعقل؟

يجيب الرومي عن هذا السؤال ويقول: نعم، ولكن في حدود ضيقة. العقل إنما يتحرك بالأدلة بينما لا يحتاج الله إلى دليل. فالله مخفي بذاته، ومعلوم في نطاق العقل بآثاره وبدائع صنعه. والنكتة الآتية متعلقة بهذا الموضوع.

أرني الصحة

مرض أحد الفلاسفة المنكرين لوجود الله، وذهب للعلاج إلى أحد الأطباء الروحانيين.

سأله الطبيب:

- ماذا تريد؟

- الصحة

- عرفني بماهية الصحة ودلني عليها وعلى أوصافها لكي أجدها وأحضرها إليك.

- ولكن الصحة دون ماهية ولا يمكن تعريفها.

- وكيف تريد شيئا لا تستطيع تعريفه؟

- صحيح أني لا أستطيع تعريفها، إلا أنني أعلم بأن الإنسان عندما يكون في صحة يكون قويا وشابا ومرحا.

- ولكني أسأل عن الصحة ذاتها.

- لا أعرف. لأنها دون ماهية.

بعد إيراد هذه النكتة يقول الرومي: "وعلى غرار هذا، فالله تعالى منزه عن الماهية. ولكنه معلوم بآثار صنعه وخلقه. انظر إلى السماء وإلى الأرض. من أين عَرَفَت الغيوم كيف ترسل الأمطار، وكيف عرفت الأرض كيف تنبت. إذن اعلم عن طريق ما ترى وتشاهد، أن هناك صانعا لا تراه ولا تشاهده أيضا، فإن الخالق منزه عن كل صوت وكلام، ولكنه يستخرج ما يريده من كل حرف وكلمة ومن كل لغة. وهذا يشبه التماثيل الموجودة في الخانات (الفنادق) الكبيرة على شكل إنسان أو طائر يخرج الماء من فمه. فالظاهر أن الماء يخرج من فم ذلك الطائر أو الإنسان، ولكن الجميع يعرفون أن الماء يأتي في الحقيقة من مكان آخر.

- ما يقال هنا نوع من إيراد الدليل والبرهان. فلماذا يعارض الرومي في إثبات وجود الله بالعقل؟

- لأن المعلوم بالدليل يكون قصير العمر. أما العارف بالله بقلبه فهو مع الله على الدوام. إذن هل يحتاج الإنسان إلى إثبات ذات هو معه؟ فهو يعطي المثال الآتي على هذا:

إن الإنسان يعرف بالأدلة أن البيت الذي يراه هو، قد بناه وشيده صانع.

ويعرف أن لهذا الصانع عينا وقدرة وحياة... إلخ. ولكنه سرعان ما ينسى كل هذه الأشياء. أما العارف فهو يعرف الصانع الذي بنى البيت، فيخدمه ويقوم بمصاحبته دائما، لذا فإنه لا يحتاج إلى دليل ولا إثبات، فهو لا يغيب عن بصره أبدا.

ومن جهة أخرى، فإن سعة العقل وقدرته محدودة في معرفة الله. ويوضح الرومي في جمل قصيرة إلى أي مدى يصل العقل، وأين يعجز ويتوقف، إذ يقول: "أنت تقول: إن قِربتي[٩] وسعت البحر. هذا مستحيل. ولو قلت: إن قربتك قد ضاعت في البحر لكان كلامك أقرب إلى الحقيقة. يستطيع العقل أن يوصلك إلى باب السلطان. ولكن عندما تصل فطلّقه لأنه يصبح بعد ذلك ضارا بك. فسلم نفسك له (للسلطان) عندئذ. يستطيع العقل -مثلا- أن يوصلك إلى الخياط. ولكن عندما تصل إليه، يجب عليك أن تستسلم للخياط وتدع عقلك. كذلك تذهب بواسطة العقل إلى الطبيب وبعده تسلم نفسك للطبيب، فيصبح قراره هو القرار. كيف يمكن للعقل أن يستوعب الله وهو منزه بذاته، وكذلك تتغير إدراكات البشر لصور التجليات الإلهية المختلفة. فمثلا، إنك من صنعه ﷻ، إلا أنك في كل لحظة في شغل مختلف وفي مظهر مختلف. والله ﷻ في شأن وفي تجلٍ آخر في كل حين. كما أن تجلياته ﷻ فيك مختلفة عندما تكون مسرورا أو حزينا أو خائفا.

- إذن فالعقل لا يتناقض مع الإيمان. ولكن أحدهما يبدأ من حيث وصل إليه الآخر.

- هذا صحيح، ولكن مولانا جلال الدين الرومي لا يؤيد إثبات الله تعالى بالعقل فقط، لأنه يرى هذا الأمر نوعا من تجاوز الحد وتجاوز الأدب. والنكتة الآتية هي حول هذا الأمر:

برهنتُ على وجود الله ﷻ

قال أحدهم في مجلس شمس التبريزي:

"لقد أثبتُّ وجود الله ﷻ بدلائل قاطعة".

---

(٩) القربة: وعاء من الجلد يضع فيه المسافر الماء. (المترجم)

وفي اليوم التالي قال شمس:

"سمعت البارحة الملائكة وهي تتحدث مع بعضها وتقول: "حمدا لله. لقد قام هذا الرجل بإثبات وجود الله، فلم تذهب تسابيحنا وتهاليلنا هباء ولم نبق دون إله". ويحك يا رجل! لا حاجة لله للإثبات. فهو ثابت دون دليل. كان عليك أن تثبت مقامك ودرجتك أمام الله. لأنه هو الأليق بالنسبة لك.

- ما أجمله من زجر.. هناك بعضهم ممن يَقبلون وجود الله ويؤمنون به ولكنهم لا يستسيغون تدخله في كل أمر من الأمور. هل لمولانا جلال الدين الرومي كلام أو رأي في هذا الموضوع؟

- لا شك أن المسألة لا تنتهي بالقول: "إنني أومن بالله تعالى". إذ يجب أن ينعكس هذا الإيمان في كل مناحي الحياة. من أهم النقاط التي يؤكد عليها الرومي هي ألا نشرك بالله تعالى في أي موضوع من المواضيع. فمثلا: إن الأشخاص المرتبطين بسلسلة الأسباب، يرون أن وسائل الرزق أسباب حقيقية، لذا تراهم يصبحون عبيدا للعبيد.

والرومي يخاطب الذين يلهثون وراء الجاه والمنصب، وينافقون رجال الدولة الكبار للوصول إلى أهدافهم فيدوسون على كرامتهم الإنسانية، ويقول لهم: "لقد خلق الله ﷻ السلاطين كأبواب صغيرة. أما المفتونون بالدنيا والمرتبطون بها بقوة، ينسون السجود لله تعالى ويسجدون للسلاطين. والسفلة وحدهم، هم الذين ينحنون للكلاب. والقطط هي التي تخيف الفئران، كما أن الفئران وضيعة إلى درجة أنها لا تستحق شرف الخوف من الأسود والليوث. والمؤمنون عند قراءة الأذكار يقولون: "الحق هو أعلى". أما رب هؤلاء الحمقى فهم عبيد آخرون. أيها المسكين الذليل! ما دام ولي نعمتك ذلك الشخص الخسيس إذن فاذهب إليه."

- إذن فالذين لا يختارون العبودية لله، لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من العبودية، بل يسقطون إلى هاوية عبادة أناس آخرين من أمثالهم. بينما...

- بينما الله تعالى غيور لا يرضى بالشرك به في أي حال من الأحوال. يقول الرسول الأكرم ﷺ: "أتعجبون من غيرة سعد فوالله لأنا أغير منه والله أغير مني"(متفق عليه).

لذا فلا محل في الإسلام للشعار القائل "دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". فالحقوق بأجمعها هي حقوق الله، فقدرته مطلقة ولا نهائية ولا يقبل ﷻ الشراكة أو القسمة. ولكن ماذا سيحدث لمن يحاول الشراكة في هذه الحقوق؟ الحكاية اللطيفة الآتية تشرح هذا الأمر.

الذئب والثعلب والأسد

تصادق الذئب والثعلب والأسد وخرجوا للصيد. والحقيقة أن الأسد لم يكن بحاجة إلى الآخرين في الصيد، ولكنه تفضل عليهم بهذه الصحبة وتكرم لكي يستفيدوا منه. صاد الأسد ثورا بريا ثم عنزة برية ثم أرنبا. وسأل الذئب لكي يمتحنه:

- لقد جاعت بطوننا، لذا قم بتقسيم الصيد بدلا مني.

قال الذئب موزعا غنيمة الصيد:

- الثور البري مناسب لك، لأنه ضخم وأنت ضخم، أما العنزة البرية فمناسبة لي من ناحية الحجم، والأرنب يكفي للثعلب وزيادة.

غضب الأسد من هذه القسمة، ولطم الذئب لطمة أهلكته، ثم التفت الأسد إلى الثعلب قائلا:

والآن لنر كيف تقسم أنت.

سجد الثعلب أمام الأسد وقال:

يا ملك الغابة، الثور مناسب لإفطاركم في الصباح، والعنزة لغدائكم، والأرنب لعشائكم.

رضي الأسد بهذه القسمة وقال: أحسنت أيها الثعلب. من الذي علمك مثل هذه القسمة الجيدة؟

أشار الثعلب إلى الذئب الميت: هذا الأحمق الميت.

قال الأسد: ما دمتَ عرفتَ حدودك وتصرفتَ بأدب فخذ كل الصيد لك لأنني لست بحاجة إليه.

إذن، فمن ضرورات العبودية رؤية الإرادة المطلقة لله تعالى في كل أمر، وعدمُ اعتبار أي شريك له. وأظن أن ما نطلق عليه وصف "الرضا" هو هذه الرؤية وهذا العلم.

- صحيح جدا. انظر إلى الحكاية الآتية التي تشرح هذا الأمر.

الرضا شكرٌ

قال الله ﷻ لموسى عليه السلام:

اشكرني حق الشكر.

فتضرع موسى عليه السلام لله تعالى قائلا:

يا رب! وأي عبد يستطيع أن يؤدي واجب الشكر الكامل لك؟

أجاب الحق سبحانه:

إذا رضيتَ بنصيبك من الرحمة والنقمة، واللطف والقهر.. أي إذا رضيت بكل ما يصيبك من خير أو سوء، تكون قد شكرتني حق الشكر.

وفي يوم آخر قال الله سبحانه لموسى عليه السلام:

"يا موسى، إني أحبك".

ثمل موسى فرحا وسأل:

"يا رب، أي شيء أحببته فيّ، حتى أزيد عليه".

قال الله تعالى:

"عندما تقوم الأم بضرب طفلها، لا يجد الطفل من يلجأ إليه سواها، إذ لا يطلب الشفقة والحنان من غيرها. وأنا ملجأك في الخير والشر. حالك هذه هي التي جلبت محبتنا لك".

- يا للروعة، ولكن أهناك درجة أعلى من هذا في موضوع الرضا.

- أجل، ولكي تعلم ذروة هذا الأمر فاقرأ الحكاية الآتية.

لا يوجد أفضل مني

سأل بهلول أحد الدراويش:

"كيف حالك؟"

أجاب الدرويش:

"أنا في حالٍ من لُبِيتْ كل رغباته في هذه الدنيا. الشمس تشرق كل يوم وتغرب كما أريد. النجوم تبرق في السماء كل مساء مثلما أرغب. والأنهار تجري في الاتجاه الذي أريد. الحياة، الموت، المرض، الصحة.. كل هذه الأمور تجري كما يهواها قلبي. إذن فماذا أريد أكثر من ذلك؟!:

- حسنا، ولكن كيف تجري كل هذه الأمور حسب مرادك؟

- جميع هذه الأمور إنما تجري حسب إرادة الحق تعالى؟ وما دمتُ راضيا بقدر الله ﷻ، فأنا أريد كل ما يريده هو. إذن فكل شيء يجري حسب مرادي.

- جميل جدا، الظاهر أن هذا هو كمال التسليم. وانطلاقا من هذا أريد أن أسأل: من المعلوم أن الإيمان ينقذ الحياة الأخروية للإنسان. ولكن هل يكسبنا الإيمان شيئا في حياتنا الدنيوية هذه أيضا؟

- بالتأكيد. ولاريب في ذلك؟ الإيمان يكسبنا أشياء لا تعد ولا تحصى. وإن الإنسان ضعيف ويحتاج إلى ملجأ قوي، حيث يريد أن يحِب وأن يُحَب. ولا يجد كل هذا إلا في الله تعالى الذي هو الصاحب الحقيقي. يقول الرومي في الأبيات الآتية بأن صداقة الوالدين رغم عظمتها وجلالها تبقى صغيرة جدا أمام صداقة الله تعالى:

لو كانت هنا صداقة حقيقية لدى غير الله تعالى

لكانت هي صداقة الوالدين،

ولكن أين هما الآن؟

وماذا بقي من صداقتهما؟

لكي نستكمل الموضوع، علينا أن نلقي نظرة على الأبيات الآتية:

لو ملكت كل شيء وحُرمت مني[١٠]

فاعلم أنك محروم من كل شيء

ولو حرمت من كل شيء وكنت معي

فاعلم أنك تملك كل شيء...

إلهي أنت أقرب إلي

من حبل الوريد

فلماذا أدعو أنا البعيد؟

- في البيتين الأولين أعتقد أنه لا توجد استهانة أو تهوين من شأن حب الوالدين. بل يشيران فقط إلى عجزهما. أليس كذلك؟

- طبعا. هذا هو المراد في البيتين. المراد أنه لا تدوم صحبة غير صحبة الله تعالى. والأبيات الآتية توضح هذا الأمر أكثر:

يا مسافرا في الدنيا

ما أكثر من صاحبت وصادقت

إن سألتك: أين هم؟

قلت: لقد رحلوا

إلى أين؟

ذهب الأخيار إلى الجنة

والأشرار إلى جهنم

وهكذا بقيتَ وحدك

مثل نار خمدتْ

تركتْها القافلة في الصحراء ورحلتْ...

---

(١٠) أي من الله تعالى (المترجم)

أنت الآن وحيد لا حول لك ولاقوة

أدركتَ أنه لا صديق لك ولا مُعين

سوى ذلك السلطان الموجود

في كل لحظة وكل مكان

والمنزهِ عن الزمان والمكان...

واعلم أن الحق تعالى هو الوحيد

الوفي بعهد الصحبة...

إن كان هو الصاحب لك

فكل حزن ينقلب إلى سرور...

إذن فانفض يديك

عن الخلان المزيفين

وفكّر، لو كنت تَلقى

خيرا من أحد غير الله

للقيته عند والديك

أين هما الآن؟

لماذا تخليا عنك وتركاك وحيدا؟

حبهما لك كان وديعة من الله عندهما.

كان كشعاعِ ضوء على حائط

عاد ورجع إلى مصدرهِ الشمسِ.

- كما يُفهم من هذه الأبيات من العبث انتظار الوفاء من الناس. إذن، فهل ندير ظهرنا للجميع ونقطع أواصرنا معهم؟

- لا يوافق الرومي الذي يذكر بأن هناك جانب جمال في كل شيء حتى في القبح، على هذا الرأي. لأن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ

وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾(عبس:٣٤-٣٧). لذا فإن أشاح صديقٌ عنك وجهَه في الدنيا وأبدى حيالك جحودا أو غرورا أو حسدا، فلا تصرخ ألما ولا تتصرف كالحمقى والجهلاء. بل سامحه إظهارا للشكر لله تعالى، وعد نفسك محظوظا لأنك تخلصت منه بسرعة ثم قل: "حمدا لله! لقد وقع الآن ما كان سيقع في الغد. وحمدا لله لأنني عرفت حقيقته بدلا من صرف حياتي معه. كنت قد اشتريت إذن قماشا فيه عيوب، ولكن عيوبه ظهرت حالا، وإلا ضاع مالي هدرا وأفلست أو كنت كمن باع جميع أملاكه وقبض دنانير مزيفة دون أن يدري، ورجع إلى بيته فرحا. إذن حمدا لله على أنني اكتشفت زيف الدنانير قبل أن يضيع عمري".

والخلاصة: أن هذه الشرور إن كانت تقودك في الأخير إلى الحبيب فهي في الحقيقة خير ورحمة. والبيت الآتي للرومي يقول:

إن كانت الأشياء التي تكرهها توصلك للحبيب، فهي جميلة محبوبة.

- وجهة نظر ملفتة للانتباه. وهل هناك حكاية في هذا الخصوص؟

- أجل.

الواعظ الذي يدعو للأشرار

كان هناك واعظ يبدأ وعظه بالدعاء لجميع المذنبين والآثمين والعصاة واللصوص وقطاع الطرق.

قيل له: من أين اخترعت لنا هذه العادة؟ الدعاء للمنحرفين غير جائز وغير مقبول.

أجابهم: لقد رأيت منهم خيرا كثيرا، ولهذا أدعو لهم. لقد أساؤوا إليّ إساءات بالغة إلى درجة عرفت منهم قيمة الخير والمعروف. ثم إنهم علموني إلى أي شيء أستند، وكلما ملتُ إلى هذه الدنيا الزائلة رأيتهم يوسعونني ضربا وشتما فأضطر للالتجاء إلى الحق تعالى. وكيف لا أدعو لهم وقد علموني كل هذه الأشياء؟

والحقيقة أن كل عدو لك هو بمثابة دواء، إذ تهرب منه وتلتجئ إلى الله ﷻ. أما أصدقاؤك الذين يشغلونك عن الله بأمور أخرى فهم في الحقيقة أعداءٌ لك. والمؤمن مثل الغُرير[١١] كلما تعرض للإيذاء سمن، وكلما تعرض للألم زاد جمالا. ولعل معاناة الأنبياء وفي مقدمتهم الرسول ﷺ وتحملَهم الأذى يكمن وراء الجمال هذا. والخلاصة أن البلايا التي تأتي من قبل الأصدقاء والأصحاب، تكون خيرا لك وإن لم تدرك ذلك. أما الشخص الشرير فهو يقدم الفائدة لغيره والضرر لنفسه.

لنرجع إلى الصداقة. ما دام الحق ﷻ هو الصاحب الحقيقي، إذن فلابد أن هناك مهامَّ ووظائف كلف العبد بها.

- على العبد أن يقابل الصحبة بالصحبة، وألا يصاحب غيره ﷻ.

والأبيات الآتية تحذير للعبد في هذا الشأن:

يا من بدايته ونهايته راجعة إلى العشق الأزلي!
أيها الأسد الهصور!
لا تسفل بقلبك
إلى درك الكلاب الهائمة في الأزقة!
عندما تلم بك نائبة
وجّه عينيك وقلبك
إلى من ترجو منه الدواء فقط
ولا تتلفت هنا وهناك
ولا تكن كالبعير الذي يقاد
إلى هنا وهناك أو يتوجه نحو الشوك
ولا تترك هذا البستان وهذا الربيع
ولا هذه الأراضي الخضراء ولا هذا النهر

(١١) الغرير "Padger": حيوان ثديي قصير القوائم يحتفر في الأرض أو جرة يسكن فيها. (المورد)

انظر، لقد هيأ لك السلطان

مجلسا يليق بالملوك

بالله عليك لا تبق في هذه المزبلة

ها هو الأمير قد أقبل للعب الكرة على حصانه[١٢]

ليكن قلبك وروحك خلف جواده

مثل تلك الكرة الخشبية...

-الصداقة شيء، والتظاهر بالصداقة شيء آخر.. ولكن ما هو اختبار معيارِ ومصداقية الصداقة.

معيار الصداقة واختبارها هو الوفاء. والمصاعب والبلايا التي تأتي من الحق ﷻ إلى العبد هي اختبار لعبوديته. إلا أن بعضهم يبحثون عن الدواء والخلاص في أبواب أخرى. هنا يقارن الرومي بين الإنسان والكلب فيقول:

"حتى الكلب لا يفارق باب من أعطاه كسرة خبز ويبقى وفيا له. لأن الذهاب إلى باب آخر كفران بالنعمة. فإن كان الكلب يخجل من الجحود وعدم الوفاء، فكيف تستطيع أنت أن تترك الوفاء وتتخلى عنه؟!".

وفي الحكاية الآتية يشرح الرومي كيفية الوفاء عند العبد:

كيف تكون العبودية والسلطنة

مر درويش فقير بائس وجائع وعار من مدينة "هراة"، وبينما هو يتجول في المدينة إذا به يرى جماعة من النبلاء بملابس فاخرة على جياد أصيلة.

سأل الدرويش أحد المارة: من هؤلاء؟ أمراء أي مدينة؟

- أمير! وأي أمير! هؤلاء عبيد مُحاسب المالية في دفتر دار "هراة".

عند ذلك قارن الدرويش المسكين بؤس حاله بحال هؤلاء ورفع رأسه إلى السماء قائلا:

---

(١٢) المقصود هنا لعبة البولو، وهي لعبة شبيهة بالهوكي تمارس على متون الخيول بمضارب طويلة وكرة خشبية. (المترجم)

يارب! انظر إلى حال عبدك، ثم انظر إلى حال عبيد محاسب مالية "هيرات"، لترى كيف تكون رعاية العبيد والإنعام عليهم.

بعد مدة ألقى السلطان القبض على المحاسب ووضعه في السجن، وأمر رجاله بتعذيب المحاسب لكي يدلهم على المكان الذي أخفى فيه خزينته. وعندما لم يتكلم المحاسب ولم يذكر لهم شيئا قبضوا على عبيده، وبدأوا بتعذيبهم لكي يفصحوا عن مكان الخزينة، وبدأوا يقطعون أوصالهم بمقابض من الحديد. ولكن لم يقم أي عبد من العبيد بخيانة سيده.

في تلك الليلة سمع الدرويش هاتفا يقول:

أيها العارف! تعلّم أنت أيضا مِن هؤلاء العبيد الأوفياء كيف تكون العبودية أنت أيضا.

- إذن فالصديق قد يدفع ثمن الصداقة.

- أجل، ولكن إن دفع هذا الثمن أو البدل في سبيل من يستحق، فلا ضير هناك ولا ضرر ولا خسارة. ويشرح الرومي من يستحق مثل هذه التضحية فيقول:

"مرحى لمن ضحى بروحه وبدنه لمن يستحق! ما أسعده!... كل إنسان يوقف حياته في سبيل شيء ما، ويفني عمره في تلك السبيل ويموت من أجلها. إذن فما أسعد من ضحى بحياته في أمر تنبثق عن موته المئات من الأحياء".

- من الموجبات والشروط المهمة للإيمان هي الإيمان بالقدر. كيف يفهم الرومي القدر؟

- لنقف إن شئتَ حول موضوع القدر قليلا، ثم ننتقل منه إلى فكر الرومي حوله. إن عالم الوجود هذا مخطط من قِبَل صاحبه وخالقه. فلا تتحرك ورقة واحدة من شجرة خارج إرادة الحق ﷻ. فتقدير الله ﷻ لأقدار خلقه هو ما يطلق عليه اسم القدر. ولكن العين المتعودة على سلسلة الأسباب، عندما تشاهد حركة ورقة شجرة، ترى الريح سببا لها وتغفل عن الإرادة الإلهية. ويوضح الرومي هذا الأمر بمثال مُلفت للنظر. يقول:

كانت نملة تمشي فوق ورقة فرأت القلم وبدأت بمدحه، فقالت لها نملة أخرى أذكى منها: بدلا من مدح القلم كان عليك أن تمدحي الأصابع التي تكتب بالقلم. لأن المهارة هي في الأصابع التي أراها وليست في القلم. فقالت نملة ثالثة أذكى منهما وأحدّ بصرا: أما أنا فسأمدح الساعد، لأن الأصابع جزء منها"، وهكذا استمر الحوار وامتد. فالقلم لا يملك قدرة لكي يكتب بها تلك الصحائف.

- ولكن إن كانت جميع الأمور تصدر من يد واحدة، فكيف نفسر التناقضات الموجودة في الكون؟ الخير والشر، الجميل والقبيح، المفيد والضار؟!

- يرى الرومي أن هذه التناقضات ظاهرية فقط. أما الحقيقة فهي وجود نظام كلي في الكون. وقد أُعطيَ كل مخلوق دوراً معيّناً في هذا النظام. ونحن جميعا نخدم هذا النظام سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر. كما يعطي (الرومي) أمثلة حول قيام الجميع بخدمة هذا النظام فيقول:

"يدور الحصان حول الرحى لا لاستخراج الماء ولا لاستحصال السمن، بل لأنه يخاف من سوط صاحبه. كذلك ثور الحراثة يعمل لكي يتجنب ضرب صاحبه. وقد وهب الله ﷻ لهذه المخلوقات هذا الخوف والشعور بالطاعة، لكي تُنَفِّذَ أعمال عباده. ويعمل صاحب كل مهنة لنفسه وليس لإصلاح الدنيا، ولكن ما يعمله يصب في نهاية المطاف في مصلحة الجميع.

عندما تُنصب خيمة للسلطان يقوم بعضهم بدق الأوتاد، وبعضهم بشد الحبال، والكل يرى عمله مهما. والهدف من عمل الجميع هو رؤية السلطان جالسا في الخيمة. والله ﷻ أعطى لكل إنسان شعورا باللذة في عمله. فلو أراد بائع القماش أن يحل محل الوزير لبقي الناس عراة. قام الزمخشري بكتابة مجلدات عديدة في التفسير، واستعمل كلمات بليغة. ولعل غايته وغاية غيره في إنجاز عمل كهذا إظهار علو كعبهم في العلوم، ولكنهم في النهاية خدموا الدين الإسلامي. حرارة الحمّام الشعبي العام تأتي من الوقود المحروقة في محرقته، والوقود هو من الحطب والعشب وروث الحيوانات. ومع أن هذا الوقود يبدو

كريه المنظر، إلا أنه يعد من قبل صاحب الحمام من النعم، لأنه هو الذي يسخن الحمام، أي يقوم بخدمة الناس.

ويقوم الرومي بتطبيق المنطق نفسه على الخير والشر ليستخلص النتيجة الآتية:

"لو قام رسام برسم نوعين من الرسوم، أحدهما للأشياء الجميلة والآخر للأشياء القبيحة. فكلا النوعين من الرسوم يقوم بإظهار مدى براعة الرسام ويكون دليلا على هذه البراعة، وليس دليلا على قبح فن الرسام. ولو لم يقم الرسام برسم القبيح أيضا لبقيت لوحته ناقصة. والله ﷻ يخلق الكافر ويخلق المؤمن، والكفر والإيمان دليلان على ألوهيته. وكل شيء بالنسبة لله تعالى خير، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لنا.

لذا فإن كل شيء في مملكة السلطان ضروري ولازم، فبجانب المال والملك يجب وجود السجن والجلاد والعقوبة. ولكن كيف يمكن أن يستوي عند عامة الناس هدية السلطان مع عقوبة الإعدام؟

بجانب آمالنا وأمانينا وأحلامنا في هذه الدنيا، هناك ما يقض مضاجعنا من أنواع الخوف والقلق. فما دام كل شيء من الله ﷻ، ألا يجب أن تكون هذه الآمال والأماني وهذا القلق والخوف أيضا متوجها لله تعالى؟

بالتأكيد، وإلا وقعنا في الموقف الذي وقع فيه الأحمق الذي تصفه هذه الأبيات:

لا تأمل كالأحمق
الذي يأمل من الرمح شفقة
بل انتظر الشفقة
من السلطان الذي يمسك الرمح
فالرمح والسيف أسيران
في يد صاحبهما

لا يعملان إلا ما يريده

فلماذا تتوسل إليهما إذن؟

تضرُّع

إلهي! الغني يجود بالكثير

ولكن جوده لا يقاس بجودك

الغني يهدي عمامة

أما أنت فرأسا مملوءًا بالعقل

هو أعطى ذهبا

وأنت وهبت يدا تعد الذهب

هو أعطى بغلة

وأنت وهبت عقلا لركوب البغل

هو أعطى شمعة

وأنت وهبت عينا تبصر النور

هو أعطى شيئا من النُّقْل[١٣]

وأنت وهبت الفم الذي يأكلها

هو أعطى راتبا

وأنت وهبت عمرا

هو أعطى لي بيتا

وأنت وهبت لي أرضا وسماءً

في الدار التي وهبتها للجميع

---

(١٣) النُّقْل: أنواع من طعام خفيف يؤكل لفتح الشهية قبل تناول الطعام الأصلي أو تناول المسكرات. (المترجم)

يعيش هو وآلاف غيره

ثم إن الذهب الذي أعطاه

أنت الذي خلقته وليس هو

أنت مالك الخبز

وأعطيت من أعطى الخبز كذلك

جوده وكرمه هبة منك له

وأعطيت له الفرحة

حينما يعطي ويجود

- الأمل شيء جميل في علاقة العبد بالله تعالى. ولكن لماذا كان الخوف ضروريا؟

- لنجب على هذا بالجواب الذي قدمه الرومي إذ يقول:

"سألني أحدهم: الأمل جميل، ولكن ما الأمر بالنسبة للخوف؟ فقلتُ له: إذن أرني أملا دون خوف أو خوفا دون أمل. مثلا تزرع الحنطة فتأمل من جانب أن ينبت محصول وفير، ومن جانب آخر تخشى أن يصاب زرعك بآفة تقضي عليه. الأمل جناح الإنسان، فكلما طال استطاع الإنسان أن يرتفع أكثر في طيرانه. لو لم يكن عند المريض أمل في الشفاء ما استطاع شرب الدواء المر.

ولكن الرومي يقول بضرورة غلبة الأمل على الخوف في الحكاية الآتية:

من المحق؟

كان عيسى عليه السلام يضحك كثيرا، بينما كان يحيى عليه السلام يبكي كثيرا.

قال يحيى عليه السلام لعيسى عليه السلام:

"هل أمِنت قهر الله عز وجل حتى تضحك هكذا؟"

أجابه عيسى عليه السلام:

"وأنت تبكي لأنك لا تثق برحمة الله تعالى؟"

احتار مَن شهد هذا الحوار فتوجه إلى الله ﷻ قائلا:

"يا رب، أيهما أعلى مقاما عندك؟"

هتف هاتف من الغيب:

"مقام من يحسن بي الظن".

من الأسئلة الفضولية التي تدور في الأذهان حول موضوع القدر والتي لا تجد لها جوابا هي أن الله تعالى خلق الناس بقابليات مختلفة، لذا يرى بعضهم في هذا الأمر نوعا من نقص في العدالة.

يرى الرومي أن عطاء الله تعالى قابليات مختلفة للناس يرجع إلى: "إن الإنسان يعد دَلَّالا لصنع الله ﷻ. مخزن الدكان مملوء، ولكن صاحب الدكان يضع كميات قليلة من مبيعاته على صوانيه، قليل من السكر، قليل من الفلفل.. إلخ، لأن المغرفة لا تسع كميات كبيرة. وقد أعطي الإنسان بعضا من قابلية الكلام وقابلية التعلم، ووهب له العقل والجود لكي يستطيع إدارة متاجره. وخزائن هذه القابليات موجودة في خزائن الله ﷻ. إذن فالإنسان بائع متجول لبضائع الله تعالى. وهذه القابليات من سمع وبصر ليست جميع القابليات، بل هي القابليات التي تستطيع حملها، لذا أُعطيتَ أجزاءً منها، ومقولة: "جئنا من الله وسنعود إليه" تعني أن كل شيء عندنا هو من عند الله وهبة من هباته.

هو لطيف لا يُرى، ولكنه يُرى بهباته في هذه الصواني. مثلا أنت لا ترى نسيم الربيع، ولكنه عندما يهبّ ترى جميع صفاته في زهورِ البساتين وورودها. فكل هذه الهبات قد أتت من نوره ﷻ والنعم الأخرى توهب لكل إنسان حسب حاجته. فالآية تقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١). الأمطار لا تنتهي، ولكنها تهطل كل موسم حسب الحاجة. والسكر كثير عند العطار ولكنه يعطيك منه بقدر ما تملك من نقود. وهو ينظر إلى الكيس الذي تحمله ويعطيك من السكر ما يستطيع هذا الكيس استيعابه. فالذي يُعطى لصاحب الكيس الصغير غير الذي يعطى لصاحب الأعدال على

البعير. فهناك من لا تسعه البحار، وهناك من تكفيه قطرات من الماء. فكل شيء يُعطى للإنسان حسب قيمته وحسب حاجته. وكل نعمة معطاةٍ أكثر من الحاجة ومن القابلية لا تعد نعمة. العشق جميل ولكن زيادة العشق أضرت بمجنون ليلى وبليلى. والمال الكثير هو الذي جعل فرعون منحرفا. والكلام أيضا من هذا القبيل، فهو بقدر رغبة المستمع وحاجته. فالمستمع يشبه طحين الخباز، أما الكلام فيشبه الماء، لذا فهو يمزج من الماء بقدر حاجة الطحين.

- أعتقد أن هذه القاعدة صحيحة أيضا بالنسبة لقراء الرومي. لأن كل إنسان يختلف في مقدار ما يأخذه ويستفيده منه.

- أجل، وهو يعبر عن هذا بما ينطبق على كلامه أيضا إذ يقول: «ما أقوله يشبه الشخص المسؤول عن توزيع المياه (السَّقَّاء). فإنْ تَرَكَ السقاء الماءَ على حاله فمِن أين يعرف الماءُ أي مكان يسقيه؟ أيسقي مزرعة الخيار (القثاء) أم مزرعة البصل، أم مزرعة اللهانة، أم مزرعة الورود؟ فإن كان ما خرج من فمي من الماء عزيرا فمعنى هذا أن هناك أراضي واسعة يابسة تحتاج إلى إرواء، وإن كان قليلا فالأرض صغيرة إذن. قد ورد في حديث قدسي مافحواه: "أن الله يعطي قوة البيان بقدر همة المستمعين".. أنا صانع أحذية وعندي جلود كثيرة، ولكني أقطع من الجلود بمقياس قدمك. عندي قماش كثير، ولكني أخيط القماش حسب مقياس بدنك. هناك حيوانات برية تعيش وهي لا تملك عينا ولا أذنا... فهل كان الله -حاشاه- بخيلا عندما لم يعطها عيونا وآذانا؟ كلا، بل لأنها لا تحتاج إليها. وكل شيء يوهب لأي أحد دون أن يكون في حاجة إليه يكون عبئا عليه. فإن أَعطيت خياطا ما يستعمله النجار من أدوات كالمنشار والقدوم والمطرقة.. إلخ، فإن هذه الأدوات تكون عبئا على الخياط. وكما توجد هناك حيوانات صغيرة وحشرات تعيش تحت الأرض في ظلام، كذلك هناك من الناس من يكتفي بظلام هذه الدنيا ويرضى به، ولا يشتاق إلى جمال الله ﷻ. فهم لا يحتاجون إلى بصيرة في العين والعقل والسمع. فهذه من حاجاتِ وضروراتِ من يشتاق إلى لآخرة، أما من لا يشتاق إليها ولا يرغب بها فلماذا تُعطى لهم؟

- عندما يُذكر القدر يتذكر الإنسان الإرادة أيضا. وهناك بعض الناس يُحمّلون اعتقاداتهم الخاطئة وتصرفاتهم السيئة على القدر. فماذا يقول الرومي في هذا الصدد؟

- يرى الرومي وكذلك علماء أهل السنة، أن الكفر ذنب والعبادة فضيلة، وكل ذلك مرتبط بإرادة الإنسان نفسه. ثم إن الله ﷻ لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يحاسب إنسانا على شيء خارج طاقته وتحمله. وسأدرج هنا مثالا من عدة أمثلة وردت في المثنوي حول محاولات بعض الناس من أنصار الجبرية تبريرَ جميع الشرور بهذه الحجة:

قال أحد اللصوص للشرطي الذي ألقى عليه القبض:

"ما قمتُ به كان قدرا إلهيا. لذا فلست مذنبا بل أنا برئ".

فضربه الشرطي بعصاه ضربة قوية على ظهره وقال:

"وكذلك ما أقوم به الآن هو من قدر الله ﷻ".

- توقفنا حتى الآن على تفسير جلال الدين الرومي للعديد من أوجه الإيمان. لذا أود أخيرا طرح السؤال الآتي: هناك من يحاول في هذه الأيام إظهار الرومي وكأنه فوق الأديان. فهل أفكار الرومي تسمح بمثل هذه النظرة إليه؟

أجاب الرومي على هذا السؤال وكأنه حدس ما سيقع، أي كنوع من الكرامة فقال: "إنني خادم القرآن، وذرة غبار في طريق المصطفى المختار ﷺ. وإني لأشكو أمري إلى الله من هذه الإسنادات وأبرئ نفسي من قائلها". وكل آثار الرومي ومؤلفاته ولا سيما كتابه "المجالس السبعة" طافحة بعبارات الحب. وهو يشرح شرحا طويلا حديثا شريفا حول أهمية التمسك بالسنة النبوية، والحديث هو: "من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مئة شهيد"(رواه البيهقي).

وكذلك يقول تعليقا على الحديث القدسي:(١٤) "لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك" بأن جميع الأنبياء والأصفياء الذين جاءوا قبله هم بمثابة الظل له

(١٤) هذا الحديث ضعيف من ناحية السند، ولكنه صحيح -كما يقول بعض العلماء- من ناحية المعنى.. (المترجم)

ﷺ. ولو دخل الظل إلى بيت قبل صاحبه، فالداخل هو صاحب هذا الظل في الحقيقة. لذا فإن الأنبياء وإن جاؤوا قبل النبي ﷺ وسبقوه، فإن هذا السبق اعتباري، أي نسبي. فكما أن جميع الفضائل التي تقوم بها اليدان والرجلان تعود إلى العقل، كذلك فإن فضائل جميع الأنبياء تعود إلى النبي ﷺ لأنه هو السبب في وجودهم.

- ولكن ما هي نظرته إلى الأديان الأخرى؟

- إن الإسلام يضع شرط الإيمان بجميع الأنبياء -إضافة إلى الإيمان بالرسول ﷺ- إلا أنه نسخ جميع تلك الأديان لكونه آخر الأديان ومكملا لها. والمقتبسات الآتية توضح أفكار الرومي في هذا الصدد:

هذا ما سمعناه من آبائنا

يقول النصارى "هذا ما سمعناه من أبائنا وأجدادنا"، لذا تراهم لا يُقبلون على الإسلام ولا يَقبلونه.

ولكن إن ورثتَ ذهبا مزيفا من أبيك أو دراهم مغشوشة، ألا تقبل استبدالها بذهب صحيح ودراهم غير مغشوشة؟ أم تحتفظ بذلك الذهب المزيف والمغشوش وتعده أفضل من الذهب الحقيقي؟ وإن ورثتَ من أبيك ذراعا مشلولة وأراد الطبيب معالجتها فهل ترفض ذلك؟ وتقول: "هذا الذراع ورثتها هكذا من أبي؟". وإن كانت ديار أبيك -الذي عاش ومات فيها- صحراء قاحلة، لا نبت فيها ولا ماء، وأراد أحدهم أن ينقلك منها إلى ديار خضرة عذبة المياه، فهل ترفض ذلك وتصر على البقاء في تلك الديار القاحلة؟ إن الله وهب لك عقلا غير عقل أبيك وعينا غير عيني أبيك وإدراكا وتمييزا مختلفا عنه. لذا بدلا من الاستمرار في تعقب عقلِ وآثارِ أبيك التي ستقودك إلى الفناء، عليك أن تتبع عقلك لتنجو بنفسك وتصل إلى الغنى الحقيقي.

يوراش

كان والد "يوراش" يبيع الملابس والأمتعة القديمة والمستعملة. وعندما

توظف يوراش في خدمة السلطان، قاموا بتعليمه قواعد السلوك والتصرف وكذلك استعمال الأسلحة.

لم يقل يوراش: "لقد جئتُ إلى الدنيا من أب يبيع الملابس والأمتعة المستعملة، لذا لا أطلب شيئا سوى أن تفتحوا لي دكانا أبيع فيه هذه الأشياء."

لم يقل هذا.

حتى الكلب عندما يكون صيادا لدى السلطان يتعود على النوم في مكان نظيف، ويترك عادة النوم في المزابل وحَفر التراب بمخالبه بحثا عن الطعام، بل يستمر في التمتع بالخير الذي ناله. إن كان الحيوان على هذه الحال يتمتع بالخير الذي حصل عليه، فما بالك بالإنسان الذي لا يملك قدرة التمييز بين السبيل التي سلكها أبواه والسبيل الأحسن التي حصل عليها ونالها!

على الرغم من هذه العبارات الواضحة للرومي، كان يملك لينا واحتراما للأديان الأخرى، وكان يدرك أن منتسب كل دين يبحث عن الحق وعن الحقيقة ويود الوصول إليها عن طريق دينه. كان أهالي الروم المحليون لمدينة قونية يحضرون أحيانا مجلسه ويستفيدون من فيض ذلك المجلس. ففي إحدى المرات كان بعض النصارى في مجلسه يستمعون إليه. وعلى الرغم من جهلهم باللغة التركية، إلا أنهم كانوا أحيانا يحزنون أو يفرحون أو يبكون حسب جو المجلس. في إحدى المرات قال أحدهم في المجلس باستخفاف: "ما بال هؤلاء يبكون!.. مع أن المسلمين أنفسهم لا يصلون إلى فهمِ معظم ما يقال في هذا المجلس وإدراكها."

فقال الرومي:

"ليس من المهم أن يفهموا الكلمات، فهم يفهمون لب هذه الكلمات. هم يدركون أن ما يدور في هذا المجلس هو عن الله ﷻ وعن كونه رزاقا، عفوا غفورا رحيما وعن عقابه أيضا، وهم يشمون من هذه الكلمات رائحة أحبابهم، لذا يتأثرون وتثور عواطفهم. كل إنسان يحب الله ﷻ من جماع قلبه ويتضرع إليه، إذ ليس بوسعنا أن نضع اسما لهذا الإيمان القاطن في القلب. وعندما يسيل

هذا الإيمان إلى مجرى الكلام وقالبه يتشكل ويكتسب اسما فيكون إما إيمانا وإما كفرا."

- لنكتف بهذا القدر من الأمثلة للإيمان، ولنبحث عن العبادات التي هي من ضرورات الإيمان.

العبادة

- لكل دين عبادات معينة... لماذا يطلب الله ﷻ منا أن نعبده؟

- لأن العبادة هي إدراك لمفهوم العبودية ولمعناها. ولكل إنسان نصيب من النفحات الإلهية، لذا يحمل كل إنسان إمكانية ادعاء الألوهية. أحيانا ينسى مصدر قوته ومنبعه فتنفخ أنانيته ويتحول إلى شخصية فرعونية. بيد أن العبودية وسيلة للتقرب إلى الله ﷻ من جانب، وتذكير بعدم القيام بادعاء الألوهية من جانب آخر. كما أن رغبة الإنسان في أداء الصلاة والصوم هي نتيجة لجذب الله ﷻ عبده إليه.

"إن الجهاد والصوم ثقيلان على النفس. ولكنهما أهون من إبعاد الله ﷻ عبده عنه". ثم إن لبعض العبادات ناحية تهم المجتمعات، كما أن هناك عبادة صحيحة وأخرى زائفة ومظهرية فقط. ويشرح الرومي مفهوم العبادة الحقيقية وماذا تُكسب الإنسان فيقول:

فما الصلاة والصوم والحج والجهاد إلا شهادة للإيمان.

يقول الصوم: "لقد ترك -الصائم- حتى الحلالَ، إذن فهو عن الحرام أبعد".

وتقول الزكاة: "إنه أعطى حتى من ماله، إذن فكيف يسرق من شخص ينتسب إلى دينه، وصاحبٍ رافَقَه في طريقه؟". ولكن إن كان الصوم والزكاة شاهدي زور فشهادة الزور غير مقبولة، كما أن العدالة الإلهية ترفض وترد شهادة الزور. والعبادة بقصد الحيلة وبنيتها تشبه الحبوب التي ينثرها الصياد، أي هي فخ من الفخاخ. والقطة تبدو وكأنها صائمة ولكنها في الحقيقة تنتظر صيدا مغفلا.

والخلاصة، أن هذه العبادات شاهدة على إيمانك وعلى عقيدتك. ولكن

يجب أولا تزكية الشهود. فمن لم يكن هكذا فهو يشبه ﴿الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾(النحل:٩٢).

- إذن، فكيف تكون العبادة المقبولة لدى الله ﷻ؟ أي ما كيفية هذه العبادة؟

- يجيب الرومي على هذا السؤال بأبيات يقول فيها بأن العبادة تشبه غرس بذرة أو نبتة صغيرة، والإنسان يزرع النبتة لكي يأكل ثمرها، ويزرع البذور ليحصد محصولها. ولكن هل تنبت كل بذرة وكل نبتة نزرعها في التربة، وهل تثمر؟ طبعا لا. ينبغي أن يكون هناك جوهر في البذرة لتتبرعم، وينبغي أن تكون النبتة نبتة شجرة مثمرة... فالنبتة دون ثمرٍ شوكة، وكل بذرة فاسدةٍ لا يحصد زارعها سوى الخيبة والتعب. ويرى الرومي أن العلامة الدالة على كون العبادة صحيحة ولها جوهر ولب حقيقي، هي اللذة المعنوية لها والتي يشكل الحب والرغبة والعشق مذاقها. وإلا يكن مثل كوكب يدور حول محور دون أن يعلم سبب حركته ودورانه. وما يفعله الكوكب يشبه ما يفعله الحاج عند الطواف، ولكن دوران أحدهما غير إرادي وطواف الثاني ودورانه إرادي. وكما لا تتساوى هاتان الحركتان في حقيقتهما مع أنهما متشابهتان في الظاهر؛ كذلك فإن شكل العبادتين -الحقيقية منها والمزيفة- متشابه في الظاهر، ولكن قيمتهما ليست متساوية. إذن فالعبادة الحقيقية هي نسيان كل شيء عند الحضور الإلهي. وهو (الرومي) يعطي مثالا على هذا، فيقول:

إن سلطانا قال لدرويش تقي: "عندما تكون مظهرا للتجلي الإلهي، اذكرني."

فقال له الدرويش: "في تلك اللحظة أنسى كل شيء حتى نفسي فكيف أذكرك!"

هذه هي العبادة المقبولة لدى الله ﷻ، حيث يختار الله ﷻ عبدا من عباده ليذيبه في عشقه ويحقق طلباته وطلبات من يسير معه. وهذا يشبه ما يلي:

كان لسلطان عبد خاص، وكان العبد قبل مثوله بين يدي السلطان يذهب ويجمع عرائض الناس وطلباتهم ليعرضها على السلطان. إلا أنه ما إن يدخل

على السلطان حتى يغمى عليه ويفقد رشده. وكان السلطان يبحث في جيوب العبد ليعلم سبب إغمائه فيعثر على العرائض ويأمر بتنفيذها...

والنتيجة التي نخلص إليها، هي أن القصد من العبادة هو العشق والمعنى، أما الشكل فيختلف من دين لآخر.

- كيف يختلف!؟ أرجو إيضاحا أكثر.

- لم يكن شكل الصلاة ولا الصوم قبل بعثة الرسول ﷺ بالشكل الحالي، ولكن الصلاة والصيام كانا موجودين. كما كان هناك كتاب سماوي في زمن موسى وعيسى عليهما السلام ولكن ليس بالعربية. إذن فالمعنى هو المهم وهو الأمر الدائم. فمثلا عندما تقول: "لقد أظهر الدواء مفعوله" فأنت تقصد معنى الدواء وليس شكله. "إن العبادة والذكر مِروحة لتأجيج نار الإيمان في القلب. ولكن إن لم تكن هناك نار فالعبادة والذكر يشبه النفخ في رماد". وهكذا الأمر عند قراءة القرآن أيضا، فقارئ القرآن الذي لا يفهم ما يقرؤه يشبه حال طفل يلعب بالجوز. فالهدف من الجوز هو ثمرته ودهنه، ولكنك إن أعطيت الطفل لب الجوز ودهنه لا يأخذه، لأن الجوز عنده يعطي صوتا في اللعب لا يجده عند لب الجوز ولا في دهنه. كان الصحابة يقرؤون القرآن وكأنهم يعبونه عبا. ومن الصعب أكل خمسة أوقيات من الخبز، ولكن إن مضغت الخبز قليلا ثم تفلته من فمك تستطيع استهلاك أحمال حمير من الخبز. هذه هي حال الغافل عن معاني القرآن والذي لا يعمل به. كما ينطبق عليهما ما جاء في الأثر [المروي عن ميمون بن مهران] "وكم قارئ للقرآن والقرآن يلعنه".

- بعضهم يَعُدُّ المحبة القلبية كافية للعبادة. فهل يمكن وجود عبادةٍ عبارةٍ عن محبة قلبية فقط دون أن يكون لها شكل أو دعاء أو كلام؟

- ينفي الرومي هذا الأمر نفيا قاطعا إذ يقول: "كل معنى يُظهر في شكل ما الإيمان في القلب، ولكن إن لم تقرّه بالكلام لا تكون مؤمنا. والصلاة فعل، ولكن إن لم تقرأ فيها القرآن فليست بصلاة صحيحة. لذا فمن الخطأ القول بأنه

لا أهمية للكلام ولا للشكل. وفي الأبيات الآتية يقول الرومي بأن العبادة هي الشاهدة على المحبة، وهي الهدية التي يحملها الصَّديق للصديق:

لو كانت المحبة والعبودية

عبارة عن فكر ومعنى فقط

لما كانت الصلاة والصوم

ضرورية ولازمة لنا...

والمحبون يُهدون الهدايا للأحباب

لتكون شاهدة على المحبة والارتباط.

- أيّ العبادات كان الرومي يركز عليها؟

- كان يركز على عبادتين في الأخص: الصلاة التي هي معراج المؤمن، والصوم الذي هو نعمة إلهية مهداة لنا. ويقول بأن هناك نوعين من الصلاة؛ صلاة في خمسة أوقات، وصلاة تستغرق اليوم كله. الصلاة الأولى هي صلاة العوام، والثانية هي صلاة العشاق.

- ولكن ما معنى الحديث الذي يقول: "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها" (رواه مسلم)؟

- يقول الرومي بأن هذا الكلام صحيح ولكن ليس للجميع. فهو صحيح لمن يعد عدم صلاة ركعتين خسارة أكبر من خسارة الدنيا وكل ما فيها ويعدها أكثر أهمية منها.

- حسنا، أهناك في الدنيا شيء أكثر أهمية وقيمة من الصلاة؟

- عندما طرح أحدهم هذا السؤال في مجلسه قال له الرومي:

"الإيمان أفضل من الصلاة. فالصلاة فرض في خمسة أوقات، أما الإيمان فهو فرض في كل حين. أحدهما يسقط بعذر، والآخر لا يسقط بأي عذر. لا فائدة في صلاة دون إيمان، ولكن هناك فائدة لإيمان دون صلاة. ثم إن الصلاة تختلف من دين لآخر، ولكن الإيمان لا يختلف في أي دين".

- ذكرتم صلاة العشاق. ما القصد منها؟

- يقدم الرومي في الأبيات الآتية تصويرا بديعا لهذه الصلاة التي هي شعور المصلي بأنه في الحضرة الإلهية:

لو كنت تملك عينين بصيرتين

لرأيت أن كلا من العالمَين

مملوءان بتجليات الحق والحقيقة

- أيعني هذا أننا عندما نحب أي شيء، فنحن في الحقيقة نحبه هو ﷻ. أليس كذلك؟ ثم لماذ يكون تجلي الله ﷻ هكذا من خلف الأستار؟ذ

- سؤالان مهمان. لنستمع إلى جواب كل منهما من الرومي:

"إن حب الإنسان المتوجه إلى آلاف الجوانب من أب وأم وزوج وصديق وبساتين ومال، ليس إلا ستارا وحجابا في الحقيقة. وعندما يرحل الإنسان من هذا العالم ويرى سلطان الكون دون حجاب، يدرك أن جميع رغباته السابقة كانت ستارا وأنه كان في الحقيقة يطلبه هو. حسنا، ولكن لماذا يتجلى هذا السلطان من وراء حجاب؟ الجواب على هذا هو: أننا بفضل الشمس نرى ونمشي وندفأ. الفواكه تنضج بها، والزرع ينمو بها ويزكو. ولكن الشمس إن اقتربتْ أكثر قليلا أحرقت. عندما يتجلى الله ﷻ من وراء الحجاب تمتلئ الجبال بالسنابل والزنابق، ولكن إن تجلى دون حجاب دُكّت الجبال دكا مثلما دك جبل الطور، ورؤية الله ﷻ في كل مكان وإن كان من وراء حجاب تحصل بالصلاة. وحسب رأي الرومي، فما يعنيه الماء بالنسبة للسمك هو ما تعنيه التجليات الإلهية عند العاشق: "صحيح أن الصلوات هي خمس صلوات في اليوم. ولكن العشاق في صلاة دائمة. لأن النشوة الموجودة في رؤوسهم لا تسكن ولا تهدأ بخمسة أوقات، بل لا تسكن بمئات الأوقات. أما أمرُ: "زر غبا تزدد حبا" (رواه الترمذي) فليس ساريا في أسماك بحار الوحدة هذه، ذلك لأن هذه الأسماك تموت دون بحر وماء. وفراق لحظة واحدة تبدو للعاشق دهرا، ووصال سنة

كأنه طيف خيال مرَّ. العاشق ظمآن، والحق ﷻ يريد من يظمأ إليه. العشق والعاشق يتناوبان كتناوب الليل والنهار. والعشق بالنسبة للعاشق هو ذاته. لذا فلا يمكن أن يقول أحد لنفسه. "زُرني قليلا" كما لا يصادف أو يصاحب أحد نفسه مناوبة".

- كأنك تنقل الجنة إلى هذه الدنيا بما تقوله وتوضحه.

- هذا صحيح، لذا نرى أن الرومي يقول في هذا الصدد ما يأتي:

"إن كنت عاشقا فاعلم أن العلو والسفول، والقيمة والابتذال هو حسب الحبيب؛ فلو كنت في قاع حفرة وكنت قريبا منه فاعلم أن مكانك في عرش السماء، ولو كنت بعيدا عنه وكان محلك في السماء فاعلم أنك في أسفل سافلين. لأن الحبيب جنة، والجنة هي المكان الذي يوجد فيه الحبيب. أما الجنة دون حبيب فهي في الحقيقة جهنم. من كان صاحبا له ﷻ فلا نقص عنده، أما من فقده فكل ما يملكه وهم من الأوهام. إذن فلا تنظر إلى الجاه والمنصب ولا تهتم بهما، بل اهتم بجلب الحبيب إلى جانبك".

- عرفنا نظرة الرومي للصلاة. والآن لنر نظرته إلى الصوم.

- كان الرومي يعطي أهمية خاصة للصوم حيث كان يأكل قليلا، ويصوم أحيانا ثلاثة أيام متواصلة. وكان يصف الصوم بأنه هبة إلهية وكرم إلهي، وأنه يحافظ على حيوية النفس ويسمح للروح بالتنفس. والأبيات الأتية التي اخترناها من شعره حول الجوانب العديدة للصوم توضح مدى حبه للصوم وتعلقه به:

جاء رمضان ووصلت راية

سلطان الإيمان والحب

فدعْ الطعام المادي

فالرزق السماوي قد أتى

وَوُضعت مائدة الروح

....

تخلصت النفس من ثقل البدن

فتقيدت رغبات طبعنا

جاء جيش العشق والإيمان

وقَهَر جيش الانحراف والإلحاد

....

الصوم أضحية نجاتنا

فيه تجد نفوسنا الحياة

نفوسنا الأمارة بالسوء

في حاجة للنقاء والتطهر

....

جاء رمضان

فانكسر باب سجن الذنوب

وتخلص القلب من أسر النفس

عَرج إلى السماء ووصل إلى الحبيب

اعتصِمْ بحبل الرحمة

المدلاة إليك في رمضان

من حبس بئر بدنك

....

يوسف عليه السلام وصل إلى حافة البئر

وهو يدعوك فأسرعْ

أسرع قبل أن يفوت الأوان

وعندما تخلّص عيسى عليه السلام

من رغبات البدن

أحبيبت دعواته

...

طهّر داخلك من رغباتك النفسية

اغسل يديك

فقد نزلت مائدة من السماء

مملوءة بالأطعمة المعنوية

....

اعلم أن للصوم مزايا

لا تنقضي عجائبه

فهو يهب الحياة للنفس

ويهب القلب...

إن عجبت من شيء

فاعجب للصوم.

....

إن كنت مشتاقا

للصعود إلى السماء

والعروج إليها

فاعلم أن الصوم

جواد أصيل مقدم لك...

.....

الصوم يعمي البدن

ليفتح عين القلب...
ولأن عين قلبك عمياء
لا تعبّدُ صلاتُك وعبادتُك
السبيلَ أمامك
ولا تستطيع تقديمَ الحقيقة إليك
.....
الصوم يزيل الحيوانية
من الإنسان، الإنسانِ
الذي له صورة الحيوان.
لذا اختص الصوم بوظيفةِ
إنضاجِ إنسانية الإنسان
....
لقد أظلمت حياة العشاق
بسبب مطبخ البدن
لذا أقبَلَ الصوم
لينير تلك المطابخ
.....
هل هناك شيء أمضى
في طعن بطن الشيطان
وأقتلُ له في الدنيا من الصوم؟
وهل هناك شيء أحدّ من الصوم
في سفك دم النفس؟

.....

هل هناك مأمور على باب سلطان السلاطين

يهب العطايا والأرباح؟

أجل، إنه الصوم

....

الصوم يهب أصحاب القلوب المشتاقة

النضرة والحياة

أكثر مما يهب الماءُ

السمكَ في البحر الحياةَ.

أيتها النفس!

عندما تصومين

فأنتِ في ضيافة الرحمن

مائدةُ السماء هي التي تليق بك

.....

أنت أغلقت باب جهنم

في هذا الشهر المبارك

وبهذا فتحت من الجنة آلاف الأبواب..

- في الحقيقة لا يوجد نظير لمثل هذا الحب للصوم في الأدب الإسلامي أو مثيل له.

وسؤالي الأخير حول العبادات هو: كثيرا ما نسمع العديد من الناس يقولون: مادمتُ أؤدي عباداتي إذن فأنا أستحق خير الدنيا والآخرة. ولكن هل هذا صحيح؟ هل يمكن أن تكون العبادات التي نؤديها ثمنا ومقابلا كافيا للنعيم في الدنيا وفي الآخرة؟

- هذا ليس ممكنا؟ إن العبادات ليست ثمنا للنعم المهداة، بل هي وسيلة إليها.

والحكاية الآتية مثال جيد على ذلك:

أجرة العبادة والجرة

كانت هناك عائلة بدوية تعيش في الصحراء. وفي إحدى الأُمسيات عاتبت الزوجةُ زوجها البدوي قائلة: "ماذا ستكون حالنا البائسة هذه؟ إلى متى سنستمر في هذا الفقر المدقع؟ أليس له من نهاية؟ لقد سمعتُ أن في بغداد خليفة عادلا كريما، وأن مدينة بغداد قد تحولت بفضل كرمه وجوده إلى مدينة زاهرة. وحسب ما يقال فإنه لا يردّ أحدا قصد بابه دون عطاء. أرى أن تذهب وتعرض حالنا له. وأنا آمل أنك لن ترجع خالي اليدين".

أجاب الزوج: "حسنا يا امرأة، ولكن هل يمكن أن أذهب إليه خالي اليدين؟ فلكي أطلب شيئا عليّ أن أهدي شيئا. وهل نملك نحن ما يليق بقصر ذلك السلطان؟"

فكرت المرأة قليلا وخطر شيء على بالها فقالت:

"ولكننا نملك ماء المطر في جرتنا. من أين لأصحاب المدن مثل هذا الماء الصافي الرائق؟ هذا أفضل وأنسب هدية تُقدَّم لهم. سأقوم الآن بمسح فوهة الجرة ثم أسدها، لكي تأخذ الجرة صباحا إلى بغداد".

قبل أن ننهي الحكاية نريد -أولا- الإشارة إلى أن الجرة هنا تمثل الجسد، والماء يمثل العبادات والطاعات، أما السلطان فيمثل مالك هذا الكون وصاحبه. في مثل هذه الحال ماذا يهدي البدوي وَلِمَن؟ هذا البدوي المسكين يبيع مال مَن لمَن؟

ومع أن البدوي لم يقتنع باقتراح زوجته في إهداء ماء الجرة إلى السلطان، إلا أنه لم يجد سوى الامتثال لرغبتها. و بعد سفر شاق وصل إلى بغداد، وبدأ يسأل عن القصر حتى وصل إليه. وعندما دخل إلى حضرة

السـلطان هش له السلطان وقبل هديته وأمر خدمه قائلا:

"إن هذا الماء ثمين جدا، فكل قطرة منه تعدل ليرة ذهبية. أسرِعوا وأفرغوا الجرة من الماء واملؤوها بالذهب، ثم أوصلوا البدوي عن طريق النهر إلى بلده".

حسِب البدوي المسكين أن كل ما قيل له كان صحيحا وقال في نفسه:

"أجل، لقد كانت زوجتي محقه. فهذا الماء كان هدية مناسبة ومقبولة جدا في القصر".

ولكن بعد قليل عندما أوصله الخدم إلى حافة النهر ليركب الزورق، اندهش من مياه النهر المتدفقة ومن صفائها ومن سعة النهر. فانحنى واغترف غرفة من الماء فذهل من عذوبة الماء فكأنه شراب عسل. عند ذلك خجل البدوي من ظنه السابق وبدأ يؤنب نفسه:

"يا ويح نفسي! يا ويح عقلي! هل يحتاج هذا السلطان الذي تجري هذه المياه الوفيرة الغزيرة كالبحر والعذبة عذوبة السلسبيل، إلى الماء المالح الذي أحضرته له؟ إذن فقبوله لهديتي كان نابعا من رحمته ومن كرمه، ولكي لا يخجلني تلطف فقبله وأعطاني هدية تناسب كرمه وجوده وفضله".

نستنتج مما جاء أعلاه، أن جميع عباداتنا وطاعاتنا ليست بدلا للجنة والجمال على الإطلاق، ولا يمكن أن تكون. والحقيقة أن مالك الملك لا يحتاج إلى العبادات التي نقدمها له. فهو يَقبل هذه العبادات كعذر وسبب لكي يهبنا الجنة. هذا كل ما في الأمر. والعارف هو الذي يدرك هذا الأمر. لذا قيل: "نظر الزاهد إلى عمله فنام مطمئنا، أما عينا العارف فقد أغضتا عن أعماله".

- هل تُعد الأدعية نوعا من العبادة؟

- طبعا، فالدعاء مخ العبادة ولكن أفضل دعاء هو دعاء العبد لأخيه. والسبيل إلى هذا هي القيام بأعمال البر والمعروف بحيث يحصل العبد على دعاء الآخرين. والنكتة الآتية توضح هذا:

دعاء فم لم يقترف إثما

هل يستطيع إنسان أن يدعو بفم غيره؟ يبدو هذا مستحيلا لنا، ولكن الله ﷻ أراد أن يشرح كيفية حصول هذا للنبي موسى عليه السلام فقال له: "عندما تطلب مني شيئا فادعني بفم لم يقترف إثما".

فقال موسى عليه السلام: "يا رب! ولكني لا أملك مثل هذا الفم".

- إذن، فادعني بفم غيرك، لأنك لا تستطيع اقتراف أي ذنب بفم غيرك.

- كيف أستطيع يا رب أدعو بفم غيري؟

- اجتهد في إسداء المعروف للآخرين لتتلقى أدعية الخير منهم، إلى درجة تلهج به ألسنتهم بالدعاء لك ليل نهار.

فما أجمل مثل هذا النوع من الدعاء!

الرجوع إلى الصديق

وأخيرا اقترب وقت الرجوع إلى الموظف الذي حان أوان تقديم حسابه إلى السلطان الذي أرسله في مهمة معينة. وبهذا انتهى فصل الأسئلة والأجوبة. ومن أجل تذكير قرائنا لنسألْ مرة أخرى: بأي نتيجة ومحصول يجب على هذا الموظف أن يرجع من الدنيا لكي يجد حسن القبول لدى السلطان، ولا يكونَ من الخائبين والخاسرين؟

- يرى الرومي أن الإنسان هو سبب وجود الكون. فكما يكون الهدف من زرع شجرة هو الحصول على الثمرة، كذلك فالغاية من وجود شجرة الكون هو الحصول على الإنسان الجيد الذي هو أنضج ثمرة للكون. صحيح أن جذور الشجرة وأغصانها وأوراقها تظهر قبل ظهور الثمرة، ولكن الثمرة أغلى من جميعها. وهذا يشبه أيضا ظهور الإنسان إلى الوجود بعد ظهور المخلوقات الأخرى. وإذا زين الإنسان نفسه وجملها ليصبح عبدا لائقا لله ﷻ فإنه يكون قد حقق الغاية التي خلق من أجلها. ولكن كل نجاح أو فشل مرتبط بنوع

من الامتحان. فنجاح الزارع يظهر في موسم الحصاد، أما موسم الحصاد عند الإنسان فيحين عند الموت. وهكذا يربط الرومي حكمة الموت بهذا الأمر:

لماذا يُميت الله ﷻ

في أحد الأيام سأل النبي موسى عليه السلام اللهَ تعالى: "يا رب! بعد أن خلقتَ كل هذه المخلوقات بكل هذه العناية، جعلتها هدفا لمنجل عزرائيل، فما الحكمة من هذا؟

قال له ﷻ: "أتريد معرفة حكمة هذا الأمر؟ إذن فاذهب وازرع أرضك، وعندما يحين موعد الحصاد ستجد جواب سؤالك.

فعل موسى عليه السلام ما أُمر به، وعندما نضج الزرع وحان وقت الحصاد حصد المحصولَ بمنجله، وبدأ يدرس أكوام الحنطة.

عند ذلك سمع صوتا من الغيب:

"يا موسى! لماذا حصدت ذلك الزرع الذي صرفت كل ذلك الجهد في زرعه وتنميته؟"

أجاب موسى عليه السلام:

"يعود السبب في حصدي ودرسي هو لنفي التبن عن الحب، ولكي أضع الحب في مخزن الحبوب، وأضع التبن في مخزن التبن.

- وأنا أيضا خلقتُ الموت لكي يتميز الخبيث من الطيب، وخلقت المحشر ليكون مقرا للأرواح.

- في مكان الحصاد يكون الحَبُّ مكرما وينقل فوق الأكف، أما التبن فيبقى تحت الأرجل. إذن فالموت لا يكون صعبا ولا مخيفا لمن كان يحمل مثل هذه النفس الشبيهة بالحَب هدية للصاحب.

- أجل، والحقيقة أن المخيف ليس هو الموت، بل ظهورنا على حقيقتنا. فليس للموت لون خاص به، فهو يُظهر الجميل جميلا والقبيح قبيحا. فالجميل ينتظر الموت بكل شوق، لأن الموت عنده هو لقاء الصاحب بالصاحب. وعندما

يكون بدل النفس والحياة شيئا أغلى وأفضل، ينقلب الموت إلى بيع وشراء رابح. ويشرح الرومي هذا الأمر كما يأتي:

"النفس عزيزة لأنه لا يوجد أعز منها. فإن وُجد أعز منها هانت". هنا لا يتردد الإنسان في استبدال النفس بشيء أعز منها وأثمن. وهو يشرح هذا بالنكتة المتعلقة بالصحابي حمزة ﷺ.

الموت في نظر حمزة ﷺ

بدأ حمزة ﷺ بالخروج إلى القتال في كهولته دون لبس درع. فقيل له:

"عندما كنت شابا قويا كنت تأخذ الحيطة وتلبس الدرع. فما بالك تترك الحيطة في زمن كهولتك؟ لماذا تلقي نفسك بيديك إلى التهلكة؟"

أجابهم:

"كان ترك الدنيا يبدو لي آنذاك عدما ودخولا إلى فم تنين. وليس هناك أحد يرغب أن يدخل إلى فم تنين. أما الآن فإنني أبحث عن الموت مثلما أبحث عن حبيب. لم يعد الموت يمثل لي خطرا لكي أهرب منه. ليهربْ من الموت من كان الموت خطرا عليه، وليمتثل لأمر ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. إذن فعندما ينتفي القبح عن الموت، لا يعود الموت موتا. فهو وإن بدا في الظاهر موتا إلا أنه في الحقيقة وصال. فلو وضعت قفصا فيه طائر في حديقة لاشتاق الطائر إلى الطيور من جنسه واشتاق للخروج من القفص، وحتى لو لم يستطع الخروج حاول إخراج رأسه أو قدمه من القفص. ولكن إن كان هناك خارج القفص قط يتحين فرصة خروج الطائر من القفص ليفترسه، عند ذلك يتمنى الطائر آنذاك أنه لو كان في القفص مئة قفص أخرى خوفا من الموت. إذن فالذين يخافون الموت يرتعبون في الحقيقة مما سيأتي بعد الموت.

إذن تصرف حمزة ﷺ يلقي الضوء على عدّ الرومي يوم وفاته "ليلة العرس".

ولكن لنسأل مرة أخرى: ماذا سيطلب منا الله ﷻ عندما نمثل أمامه؟

سيطلب منا أنفسنا.. في الصفحات السابقة ذكرنا الفرق بين "أن تكون" وبين "أن تملك". فالله تعالى الذي هو مالك كل شيء لا ينظر إلى "ما نملك" ولكن إلى "من نكون؟" أي إلى "من نحن؟"، ويحاسبنا على هذا. نحن لا نأخذ معنا إلى هناك أي شيء، ولكن نصحب أنفسنا وقلوبنا وأرواحنا. ويورد الرومي حادثة جرت بين النبي سليمان عليه السلام وبلقيس للاستدلال على أنه ما من شيء يكون مقبولا ومأخوذا بنظر الاعتبار في الحضور الإلهي غير ما ذكر.

تعالَي بنفسكِ

عندما وصلت رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس يدعوها إلى الإيمان وإلى الحق أدركت أن الرسالة من شخص عظيم. فأرادت أن تلهيه بالهدايا بدلا من ذهابها إليه، فأرسلت أربعين جملا محملا بالذهب. إلا أن الرسل الذين كانوا يحملون الهدية، عندما وصلوا إلى بلد سليمان عليه السلام ووجدوا أن الشوارع مغطاة بالذهب ذهلوا، فخجلوا من الهدية التي يحملونها وأرادوا الرجوع. ولكنهم كانوا رسلا وكان عليهم القيام بواجبهم الذي كُلّفوا به، لذا استمروا في رحلتهم وعندما مثلوا في حضرة النبي سليمان عليه السلام قال لهم:

"إن ما جلبتموه لا يصلح إلا زينة في رقاب البغال. لست في حاجة إلى هذه الهدايا ولكني في حاجة إليكم. ثم إنّ هذا المال الذي تحسبونه لكم هو في الحقيقة أمانة عندكم. وهذا المال لا يبقى أسيرا عند أحد بل ينتقل من يد إلى أخرى. ثم إنني عندما دعوتكم لم أكن أطلب منكم أجرا ولا مالا، إن أجري إلا على الله ﷻ. إذن فقدموا هنا أنفسكم لي. وطهروا قلوبكم من عبادة النجوم وآمنوا بالله ﷻ".

إذن، كان سليمان عليه السلام يطلب بلقيس، والله تعالى يطلبنا نحن، أي يطلب نفوسنا. ويقول الرومي بأن الله تعالى سيقول يوم الحشر لعباده: "هل عندكم من هدية ليوم القيامة؟ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة. فهل أتيتم دون زاد؟". ثم يذكر طلبه منهم فيقول: "لم يكن المهم عندي بلاغتكم ولا جمال ملابسكم ولا

أموالكم وأملاككم، ولكني انظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

بهذه الجملة كان الرومي يشرح لنا تفسيرا للآية الكريمة:

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۝ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشعراء:٨٨-٨٩).

وتناول أحد الشعراء الأتراك هذه الآية بالشرح في أبيات شعر جميلة:

يا سيد! لا تحسب أنهم سيطلبون منك اسما

بل سيطلبون منك قلبا سليما

يوم لا ينفع مال ولا بنون.

- القلب السليم... وبتعبير آخر مرآة مجلوة..

- أجل، قلب نقي أو مرآة مجلوة. ولكن لماذا كان القلب النقي أفضل هدية مقبولة؟ لأن الله ﷻ الذي لم تسعه السموات والأرض، نظر إلى قلب المؤمن وقال بأنه وسعه. فليس هناك أفضل من قلب نقي وجميل لكي يكون مرآة لجمال الله ﷻ. ويشبه الرومي هذه المرآة المجلوة المجلوبة إلى الله تعالى كما يأتي:

جلبت لك مرآةً

زار يوسف عليه السلام أحدُ أصدقائه. فقال له يوسف:

"أي هدية جلبتَها لنا أيها الصديق!"

خجل الضيف من كلامه عليه السلام وقال وهو يبكي:

"أيها الفريد في الجمال والمال. فكرت كثيرا فلم اهتد إلى هدية مناسبة لك. فمهما جلبت من هدايا فهي بمثابة حبة في منجم معدن أو قطرة في بحر. فإن كانت لدي حبة قمح واحدة فمخازنك مملوءة بالقمح. ولا مثيل لجمالك في هذه الدنيا. لذا رأيت من المناسب أن أجلب لك مرآة لا غبار عليها. يا من تغار الشمس من جماله! أي شيء أجمل من جلب مرآة تُشاهِد فيها جمالَك؟

ما أسعد من يستطيع جلب مثل هذه المرآة إلى يوسف!

نحن جئنا

جئنا لدعوة الناس

إلى الوحدة والتساند

وإلى الالتقاء على المحبة

ولم نأت للتفرقة والخلاف والنزاع.

...

نحن جئنا

بكلام لم يقله أحد

بوجوه تبث الرحمة للناس

حَدَسْنا ما يدور في القلوب

فأتينا بلغة فوق اللغات

...

نحن جئنا

الفضاء قبتنا

والناس أُسرتنا

لا لون لنا

لأننا عددنا جميع الأقوام إخوتنا

...

نحن جئنا

جاء غيرنا ثم رحلوا

عاشوا وماتوا ورحلوا

وُلدنا لكي لا نموت

جئنا لكي لا نرحل

...

نحن جئنا

لنَتنزِل كالغيث على كل مكان

ولندخل كالشمس إلى كل بيت

ولتكن خدودنا كالتربة تحت أقدام الناس

الخلاصة:

أننا جئنا لكي نحِب ونُحَب